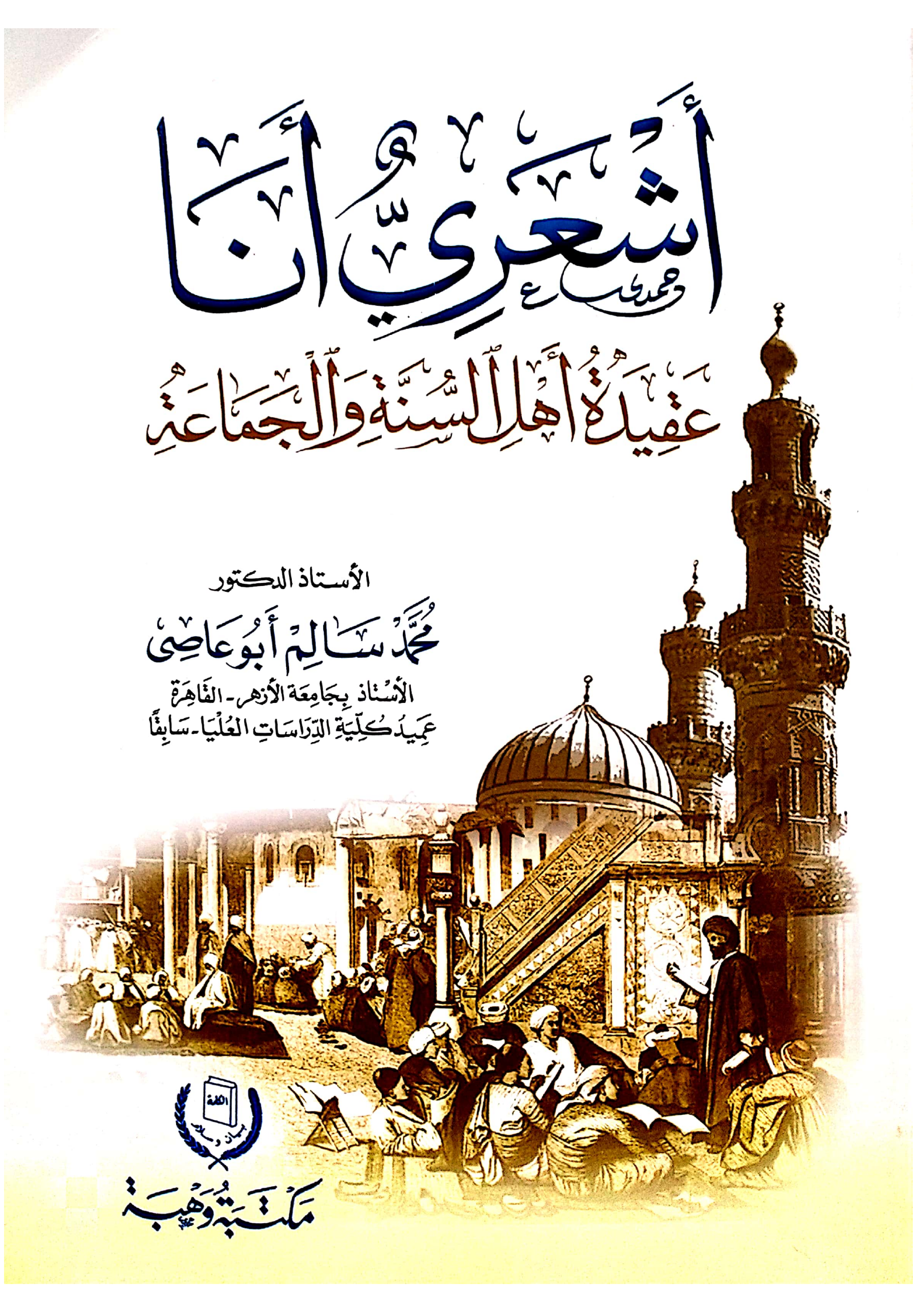


أشعري أنا
عقيدة أهل السنة والجماعة
الأستاذ الدكتور
محمد سالم أبو عاصي
الأستاذ بجامعة الأزهر - القاهرة
عميد كلية الدراسات العليا - سابقًا
مكتبة وهبة

مُصَوَّراتُ ومرفوعاتُ

الشيخ / ناصر الأشعري



الأستاذ الدكتور
محمد سالم أبو عاصي
الأستاذ بجامعة الأزهر - القاهرة
عميد كلية الدراسات العليا - سابقاً





أشعري أنا
عقيدة أهل السنة والجماعة
الدكتور محمد سالم أبو عاصي
الطبعة الثانية (مزيدة ومنقحة)
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢م
الأولى لمكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
١٨٨ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠٢٢/٤٠٥٩
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
978-977-225-567-2



دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبوعاصي، محمد سالم.
اشعري أنا : عقيدة أهل السنة والجماعة /
محمد سالم أبوعاصي. - ط٢ مزيدة ومنقحة، القاهرة:
مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٢٢
١٨٨ صفحة؛ ٢٤ سم
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٢٢٥ ٥٦٧ ٢

١- الأشاعرة (علم الكلام)

أ- العنوان

٢٤٥,٨



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات ، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ؛

فهذه طبعة ثانية لكتاب (أَشْعَرِيٌّ أنا) بعد طبعة أولى انتشرت انتشارًا واسعًا ، ولله الحمد والمنة ، ولقد أرهفتُ سمعي خلال انتشار الطبعة الأولى إلى أي استدراك أو نقد علمي موضوعي قد يتفضل به قارئ أهل للاستدراك أو للنقد ، ولكنِّي لم أتلق شيئًا من ذلك .

وأقول : (أهلٌ للاستدراك أو النقد) احترازًا من كلام سائبٍ تلفظ به بعض الألسنة التي ينطوي قلبها على حقدٍ دفين ، وأشد ما ابتلى به الإسلام متحدِّثٌ جهولٌ غير متمكن فيما يتحدث فيه ، وينبعث من ذلك التعنت والضلال والإضلال .

إنَّ الإسلام وإن كان للجميع اعتقادًا وسلوكًا ، فهو للمتخصصين تعليمًا وإرشادًا ، ولكن أين المتخصصون؟!

أهم أولئك النفر الذين يخدعون الناس بمجرد التظاهر بالأشكال التي ترضي العامة ، ومن ثَمَّ يصبح التخصص في الإسلام مظهرية لا غير ، أم أنَّ المتخصصين



هم أولئك النفر الذين يُتاجرون بأحكام الإسلام فيعلنون في كلِّ وادٍ ما يُناسبه من عقائد يرضون بذلك أهله؟

كلا . إنَّ المتخصص في الإسلام هو العالم بالكتاب والسنة رواية ودراية ، العارف بمواضع الإجماع ، المدرك للقياس بأركانه وشرائطه ، الخائف من الله لا غير .

وكم سمعنا ونسمع عن أنَّ فلانًا هو العالم العلاَّمة ، وكلُّ ما قاله نقل أقوال قديمة غير ملائمة في قضايا اجتهادية ، لو عاش أصحابها لاستبدلوا بها غيرها .

هذا في أحكام الفروع العملية ، أمَّا في أحكام الاعتقاد فالمصيبة أدهى وأمرُّ حيث يزعم أحدهم أنَّ الأشاعرة يقولون : إنَّ الله في كلِّ مكان . والسؤال : أين المصدر الذي قال فيه الأشاعرة ذلك؟! والقاعدة تقول : إن كنت ناقلاً فالصحة ، أو مدعيًا فالدليل .

والذي هو ثابتٌ عن السادة الأشاعرة والماتريدية في كلِّ المصادر المعنية بذلك أنَّ المكان والزمان مخلوقان بقدرة الله ، فليس من المنطق أنَّ الله يجتازه مكان أو زمان .

فمن أصولهم أنَّهم لا يعترفون بمكان أو زمان لله على ما هو مبينٌ في صلب الكتاب ، وأمَّا كبيرهم الذي علَّمهم الحديث كما يدَّعون يزعم أنَّ الأشاعرة يوجبون على الله فعل الصلاح والأصلح ، والأشاعرة براء من ذلك ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

لعلنا ندهش إذا علمنا أنَّ الذي يتجرد لاعتقاد أهل السنة والجماعة ـ الأشاعرة والماتريدية ـ ويتصدى لبدع هؤلاء يُعدُّ في نظر المتسلفة والجماعات المتطرفة

خارجًا عن الإسلام ، فإن عجزوا عن مواجهته بالحجة حاولوا قطع أرزاقه بكل ما تيسر لهم من وسائل ، وما أُتيح لهم من قوة ، ووشوا به هنا وهناك ، وقالوا : إنَّه منحرفٌ في الدين والاعتقاد ، فإن ألجمتهم بالحجة قالوا : إنَّه يعتنق مذهبًا فاسدًا ولا ينبغي أن يُناظر حتى لا تستشري بدعته ، وإن شاءت الأقدار أن تفضح دعاويهم الكاذبة قالوا : إنَّه منافق ، وحيل الشياطين لا تنتهي ، والأزمات التي تعترض أصحاب المعتقد الصحيح من أهل السنة والجماعة ليست بجديدة ، فكلُّ عالمٍ صادقٍ من أجل مصلحة دينه ووطنه يجب أن يضحي بكلِّ شيءٍ في سبيل إرضاء ربه ، وفي الحديث : «**مَنْ أَسْخَطَ اللهَ فِي رِضَا النَّاسِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ ، وأَسْخَطَ عَلَيْهِ مَنْ أرضاهُ فِي سَخَطِهِ ، وَمَنْ أَرْضَى اللهَ فِي سَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ مَنْ أَسْخَطَهُ فِي رِضَاهُ حَتَّى يُزَيِّنَهُ وَيُزَيِّنَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ فِي عَيْنِهِ**»[1] . ولله درُّ من قال :

نُرقِّـع دنيانـا بتمزيـق ديننـا ... فـلا دينـا يبقـى ولا مـا نُرقِّـع

والمؤلم ـ كما يقول أستاذنا القيعي ـ أن يستمع بعض المسلمين للإشاعات ، وأن يعتبروها مصدرًا موثوقًا به لا يقبل المناقشة ، ولستُ أدري كيف حالهم والله يُناديهم : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ** ﴾ (الحجرات:٦) ..... إنَّ نظرةً ثاقبةً لمن يتحدثون عن الإسلام وعن العقيدة تكشف لنا عن أهوال جسام ، فواحد لم يستطع الحديث

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٦٨/١١ رقم الحديث (١١٦٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . قال الهيثمي : «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ يَحْيَى ابْنِ سُلَيْمَانَ الْجَفْرِيِّ ، وَقَدْ وَثَّقَهُ الذَّهَبِيُّ فِي آخِرِ تَرْجَمَةٍ» . مجمع الزوائد ٢٢٤/١٠ رقم الحديث (١٧٦٧٠) .

في تخصصه فوجد في الإسلام مرتعًا خصبًا يؤلف فيه لاعتقاده أنَّ الدين يفتقد المخلصين له الذين ينبرون للدفاع عنه ... لقد كان للدين حماةٌ وهبوا حياتهم له ، وتحملوا من أجل فهمه فهمًا صحيحًا الفقر والتنكيل والتهم الباطلة ، (فما ضعفوا وما استكانوا) [(١)] .

إنَّ العالم - في رأيي - يجب أن يتجرد فقط لخدمة دينه ، وأن يقف نفسه لمحاربة التيارات الملحدة أو المتطرفة أو الاعتقادات الفاسدة ، وأن يستنكر بكلِّ قوةٍ أي نفاق مهما كانت صورته ، ولستُ أدري كيف يستسيغ للعالم المسلم أن يزج بنفسه في فكر سياسي أو ينتمي إلى جماعةٍ من الجماعات أو يتبنى الآراء الشاذة في الأحكام الشرعية ، فكلُّ ذلك مذمومٌ وممقوتٌ .

إنَّنا باسم الإسلام نرفض كلَّ إلحادٍ يتنافى مع الدين ، ونرفض - أيضًا - كلَّ شكلٍ يتنافى مظهره مع مخبره ، ونرفض - ثالثًا - تقديم المهم على الأهم ، ونرفض قبل هذا كلِّه أي اعتقاد يلزمه التشبيه والتجسيم بالنسبة لله - تعالى .

وختامًا : أجدني أُردِّد ما قاله أديب العربية الأكبر : «أين أثر جيش العلماء في دفاع المعاني العدوة عن أهل البلاد؟! تعلّم الشعب من دفن شهدائه كيف يستنبت الدم فينبت الحرية ، وكيف يزرع الدمع فيخرج منه العزم ، وكيف يستثمر الحزن فيُثمر له المجد» [(٢)] .

لأجل هذا نُعيد طباعة (أشعريٌّ أنا) طبعةً ثانيةً ، ولكم تضاعف حمدي لله - عزَّ وجلَّ - عندما نفدت آلاف النسخ من الطبعة الأولى في مدةٍ وجيزةٍ ، وقد اقترح

---

(١) الإسلام تعقل واستنباط للدكتور القيعي ، ص ٧ ، ٨ بتصرف واختصار .

(٢) وحي القلم للأستاذ الرافعي ٢/٢٧٢ وما بعدها .

عليَّ بعض المخلصين أنْ أُعدِّل العنوان إلى (**أشعريٌّ أنا . . . . . عقيدة أهل السنة والجماعة**) .

فاللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علمًا ، وجنبنا مزالق الردى ، وارزقنا الإخلاص لوجهك الكريم . يا أكرم المسئولين ، ويا أرحم الراحمين .

مصر الجديدة في :

٢٤ من جمادى الأولى ١٤٤٣ هـ

الموافق : ٢٨ من ديسمبر ٢٠٢١م

الأستاذ الدكتور

محمد سالم أبو عاصي

الأستاذ بجامعة الأزهر - القاهرة

عميد كلية الدراسات العليا - سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله وليِّ كلِّ نعمة ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، ولا معروفة لنا إلا ما ألهمتنا ، فألهمنا اللهم الرشد ، وعلمنا الحق ، وجنبنا الضلالة ومزالق الردى ، ويسر لنا السبيل إلى نشر المعتقد الصحيح ، إنَّك رب العالمين ، ومجيب السائلين .

وبعد ؛

فمعروفٌ أنَّ الإسلام أن يشهد المرء أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمدًا رسول الله أوحى الله إليه القرآن ومثله معه ؛ فالقرآن والسنة الموثوقة وجهان لعملة واحدة هي الوحي ، غير أنَّ القرآن وحيٌ متلو ، والسنة وحيٌ غير متلو .

وقاعدة الإيمان تتمثل في أنَّها الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والقضاء والقدر ، واليوم الآخر ، وقد عُني المسلمون الأوائل بتحرير العقيدة الإسلامية مما يمكن أن يكتنفها من لبسٍ وضبابٍ، أو يعلق بها ـ مع امتداد الزمن ـ شيءٌ من الشوائب أو المفتريات .

ومضى بعد الأوائل علماء الأمة جيلاً بعد جيلٍ حتى تشكلت منهم مدرسة الاعتقاد الوسطي ، ولا نُبالغ إذا قلنا : إنَّ المدرسة الوسطية المعتدلة الواعية لما



تعتقد هي ما اصطلح على تسميتها باسم أهل السنة والجماعة ، وهذه المدرسة كان شيخها الأول الإمام أبو الحسن الأشعري ، ونديده الإمام أبو منصور الماتريدي .

وهنا يثور سؤال : ما معيار الانتماء إلى أهل السنة والجماعة؟ وما الذي يحقق هذا الانتماء الذي يترتب عليه النجاة من التفرق الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ في إنكار ضمنيٍّ له بناءً على إنكار القرآن له في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:١٥٩).

بيد أنَّ أسبابًا سياسية ـ لا صلة لها بالعلم ـ نجم عنها عناصر متفرقة راحوا يدعون في أمور العقيدة مزاعم هشة ، ومرئيات تُعاني من ضعف في عمق الفكر وتسطيحه في ممارسة العقيدة ، وافتئات دون إدراك مع بعض النصوص القرآنية يسحلونها بمبعدةٍ عن الدرس اللغوي المعتبر أصلاً من أصول التعامل مع الوحي الشريف كتابًا وسنةً .

وتبلور منهم اتجاه أطلق على نفسه (المدرسة السلفية) ، ثم من خلال هذه المنزلقات في تعاملهم مع نصوص الوحي سقطت من أقلامهم سقطات تصيب العقيدة في الكبد ، من ذلك : أنَّ مما قرروه يرجع إلى التشبيه أو التجسيم ، وشعارهم نُثبت ما أثبته الشرع ، وما قرره شيخهم الأكبر (ابن تيمية) في العديد من كتبه أنَّ أنواع العوالم قديمة ، أمَّا مفرداتها فهي محدثة ، وأنَّ الحوادث تقوم بالذات الإلهية ، وأنَّه ليس ثمت من دليل في الوحي على أنَّ الله ليس جسمًا ، وليس ثمت من دليل على أنَّه جسمٌ ، وزعمه أنَّ كلام الله عبارة عن حروف وأصوات تحدث في ذات الله شيئًا فشيئًا ، ثم قوله بالحركة والنزول والدنو في حق الله ، وقوله بالحد ، إلى غير ذلك من المسائل المستشنعات .

ويأتي في المقابل وبصفة الامتداد لمدرسة أهل السنة والجماعة (الأشاعرة والماتريدية) رموز مضيئة وعلماء أثبات يفندون تلك الأفكار التي يختلط فيها

الحق بالباطل ، ويبرزون أوجه اللبس التي يكتنفها ، وينفون الخبث الفكري الناجم عن إهمال قوانين اللغة التي هي لسان الوحي الشريف ، وألفوا المؤلفات ، وأنجزوا المنجزات ، ودبجوا البحوث والمقالات التي هي رشفات من رحيق المعتقد الأشعري الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة ، حتى بانت ادعاءات المتسلفين أمام منجزات المدرسة الأشعرية ثلوجًا أشرقت عليها شمس الحقيقة ، ولم يقف المد الصحيح لأهل السنة والجماعة على مستوى جهود فردية ، بل شاء الله بحكمته أن يحتضن الأزهر الشريف الذي هو كعبة العلم في العالم الإسلامي معتقدات أهل السنة والجماعة (الأشاعرة والماتريدية) .

ولازلتُ أعي عبارةً كانت كثيرة الجريان على ألسنة أساتذتنا تقول : (والمختار عند أهل السنة) ، ويعنون بذلك الأشاعرة .

وبإيجازٍ وجيزٍ ، فعلماء الأمة عبر القرون كانوا من أهل السنة وهم الأشاعرة والماتريدية .

وهنا يدلف بنا القلم إلى أنَّ ثمت جوهرًا دقيقًا ومحررًا في مسائل العقيدة وقضاياها ومنهجها مما يُعدُّ هذا الكتاب تصويرًا دقيقًا وموضوعيًا له .

ونبادر قبل أن يضع القلم عصا التسيار في هذه المقدمة الوجيزة أن نقول : يأتي هذا الكتاب درسًا وجيزًا وخطابًا واضحًا لعامة الناس المثقفين ، لكنَّه شامل لأصول وقواعد أهل السنة والجماعة ، تلك العقيدة المستقاة من العقل والنقل على سواءٍ في إطارِ منهجٍ يتحلىٰ بالموضوعية المجردة ، والتحليل العلمي الذي يتقبله العقل الواعي بكل قبولٍ حسنٍ ، وفي ذات الوقت يناقش الكتابُ بعضَ المزاعمِ والأفكارِ المصابةِ بالهشاشةِ مناقشةً علميةً في هدوءٍ وأدبٍ تتغيا الوصولَ إلى الكلمة الصحيحة والصادقة التي تتقبلها العقولُ بقبولٍ حَسَنٍ ، ولمَّا كان الكتاب يتناول قضايا ومسائل وأحكامًا وغير ذلك مما تتضمنه بحوث العقيدة ساغ لنا أنَّ نسميه



(أشعريٌّ أنا . . . . . عقيدة أهل السنة والجماعة) .

وختامًا أقول : اللهم إنَّك تعلم أنَّ هذا هو يقيني ، وهذا ما أعلمه وما توصل إليه عقلي من خلال أفهام الأئمة الكبار ، وهذا ما أركن إليه من حقيقة اعتقادي لك ، وإيماني بكامل خضوعي لك ، وخضوعي لسلطانك ، والمعذرة منك على عجزي وضعف عبوديتي ، وقلة ذات يدي لخدمة المعتقد الصحيح وتعريف الناس بخالقهم ومولاهم المتصف بكل كمال يليق به ، المنزَّه عن كل نقص لا يليق بذاته الأقدس .

اللهم لك الحمد يوم خلقت ، ويوم أكرمت وهديت ، ويوم علمت ، ويوم وفَّقت ويسرت . لك الحمد من الأزل إلى الأبد ، لك الحمد على أن ألهمتني حماك ، وأشعرتني بمنتهى عجزي وفقري ، وبعظيم منتك ونعمك عليَّ ، توج اللهم عظيم إنعامك عليَّ بخاتمةٍ حسنة يوم أن ألقاك ، والأمل معقود يارب العالمين أن تلحقني بالصالحين من عبادك ، وتدخلني مع من يُنادون غدًا قائلين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (فاطر: ٣٤-٣٥)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الأستاذ الدكتور
محمد سالم أبو عاصي
الأستاذ بجامعة الأزهر - القاهرة
عميد كلية الدراسات العليا - سابقًا

مقدمات مواهد

• المقدمة الأولى : من يرد الله به خيراً يفقه في الدين

كل فصيل في الحياة درجات حتى المرسلين أنفسهم درجات ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (البقرة:٢٥٣).

والمخلوقات فصائل ، وكل فصيل فصائل ، وعالم الإنسان فصائل ، ومنه فصيل العلماء : علماء الشريعة وهم من يخدمون في ساحة الوحي القدسي الأسنى والأسمى ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٢) . وقال ﷺ فيما أخرجه البخاري : ((من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)) .

فمن أول الواجبات على المسلم معرفة الله ـ تعالى ـ بمعنى معرفة ما يجب له من صفات الكمال التي تليق بذاته المقدسة ، ومعرفة ما يستحيل في حقه سبحانه وتعالى من صفات لا تليق بجلاله الأقدس ، ومعرفة ما يجوز عليه عزَّ وجلَّ مما هو ممكن ، ومعرفة ما يجب للمرسلين تفصيلاً من صفات الكمال البشري كالصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، والفطانة ، ومعرفة ما يستحيل عليهم من النقائص البشرية التي لا تتواءم والنبوة ، ومعرفة ما يجوز في حقهم كأكل الطعام ، والمشي في الأسواق .

ومعرفة السمعيات ترفدنا بها كلمات الوحي الشريف كتابًا وسنةً ، كعذاب القبر ونعيمه ، والجنة ، والملائكة ، ويوم القيامة وما يحصل فيه من أحوال ، والجنة والنار ، والحشر والنشر ، والصراط والميزان ، وما إلى ذلك .



كما أنَّ من العلم الضروري أن يعلم الإنسان ما هو حلال وما هو حرام ، وأن يعرف أحكام الشريعة في شتى أمور حياته ، وفيما يتعلق بالله والناس والكون والكائنات .

● المقدمة الثانية : إنَّما العلم بالتعلم

تحصيل العلم ليس بالزعوم والادِّعاءات ، ولا بأن يجعل المرء من نفسه حاطب ليل يجمع الطيب على الخبيث ، وتحصيل العلم ليس كذلك بمجرد مطالعة ذاهلةٍ لصحائف الكتب وأوراقها ، وإنَّما تحصيل العلم بتلقي مضامين الكتب من أفواه العلماء الثقات ، من المأثور في ذلك قول محمد بن سيرين وهو من كبار التابعين: « إنَّ هذا العلم دين فانظروا عمَّن تأخذون دينكم » رواه مسلم في مقدمة صحيحه .

ومن المأثور أيضًا في ذلك عن أساطين العلم وثقاته النهي الشديد والتحذير الأشد من أخذ الفتاوى ومضامين العلم من أولئك الأدعياء اللقطاء في ميدان العلم الذي لم يدرسوه دراسةً نظامية ، ولم يُشافهوا به العلماء المشهود لهم بالعلم والتفقه في الدين شهادات معتمدة من المؤسسات المعنية بذلك في شتى الأقطار ، تلك المؤسسات التي ينتهي نسبها ظاهرًا وباطنًا إلى الأزهر الشريف .

وممَّا ذكرناه من النهي عن أخذ العلم من غير مصادره الصحيحة مثل قولهم :

فخـــذوا العلـــم علـــى أعلامـــه ... واطلبـــوا الحكمـــة عنـــد الحكمـــاء

واطلبوا الـــمجـــد في الأرض فـــإنْ ... هي ضـــاقت فـــاطلبوه في الســـماء

ومثل هذا قول بعضهم : « لا تأخذوا القرآن من مصحفي ، ولا العلم من صُحفي »[1] .

---

(١) فتح المغيث ٢/٢٦٢ .

وحين نتأمل تراثنا الإسلامي نقول بكل أمانة وثقة : إنَّ الينابيع الأولى التي جرت علمًا سلسبيلاً فاض في شتى العصور في ذخائرنا التراثية علمًا عميقًا حقيقيًّا دقيقًا منطقيًّا عقلانيًّا ينبع من القرآن الكريم والسنة المطهرة والسيرة العطرة ، وما تفجرت عنه قرائح الصحابة والتابعين وتابعي التابعين في شتى العلوم ومختلف التخصصات كالعقيدة ، والفقه ، والأصول ، والتفسير ، والحديث ، وعلوم العربية كالنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والأدب ، وأصول اللغة ، وعلوم القراءات والقرآن ، وما إلى ذلك .

كل ذلك وما شاكله إنَّما نتاج علماء الأمة الأماثل الذين تربوا على منهاج أهل السنة والجماعة الذين هم الأشاعرة والماتريدية .

وفي ضوء ذلك نقول : إنَّه في هذا العصر ، عصر التأصيل والتحصيل والتحقيق والتدقيق والتحرير العلمي والتوثيق لم يعد ثمَّت مكان لدعيٍّ يقول : إنني مجازٌ من فلان المتسلف ، أو قرأت على شيخي كتاب كذا أو شافهني فلان بكذا .

إنَّما المكان والمكانة لتلك النخبة المصطفاة المجتباة التي حفظت القرآن في بواكير الحياة ، ثم انتظمت في المسلك العلمي من المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الجامعية بين أحضان الأزهر الشريف ، ثم راحت تطوف حول تلك الكعبة العلمية الروحية تنجز فيها رسائل الماجستير والدكتوراه ، وتواصل بحوثها ودراستها حتى درجة الأستاذية التي هي قمة السلم العلمي والأكاديمي على كوكب الأرض كله ، وباتفاق جميع علماء هذا الكوكب الأرضي ، ومن ثمَّ تسقط تلك الأصنام التي اصطنعها فئةٌ لا علم لها ولا عمق لها ولا مرونة عقلية لها ، فئةٌ مسطحة لو قدر لأحدهم أن يحاول الغوص وراء معلومة ليستيقنها لتوقفت أنفاسه على بعد من سطح الأرض ، تلك مجرد أساطير وفرقعات وزعوم وادِّعاءات .

وهؤلاء من المتسلفة الذين لا يجدون إلا التبديع والتفسيق ، وربما التكفير والتحريم ، وغير ذلك ممّا لم يأذن به الله كثير .

ومن هذا المنطلق انبثق عنوان هذا الكتاب ((أشعريٌّ أنا)) من تربة فكر أحد علماء الأزهر الشريف الغيورين على دينهم : فضيلة الشيخ خالد الجندي عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

● المقدمة الثالثة : العلم أمانة

الحديث عن الأمانة كثير وهو ذو شجون ، والناس حين يطلق هذا المصطلح تتعلق أفهامهم بالأمانة في الماليات ، ولا مانع عندنا أن يكون هذا الفهم ضمن كبريات فهومنا للمصطلح أو في قمتها ، لكنَّ الذي نرفضه أن تنحصر الفهوم للمصطلح في بوتقة الماليات .

إنَّ دائرة الأمانة تتسع لتشمل الكثير من الأمور ، فحفظ المرأة فرجها وعينها ولسانها وشتى جوارحها أمانات ، وحفظ الرجل ما يُوازي ذلك أمانات ، والمحافظة على الفرائض أمانات ، وتأديب الأولاد من الأمانات ، والزوجة في بيت زوجها أمانة ، وهو في عين رعايتها أمانة ، والمسؤوليات الوظيفية أمانات ، والمحافظة على العلاقات الاجتماعية أمانات ، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه من الأمانات ، والعواطف النبيلة تجاه الأولاد والبنات والزوجات والوالدين ، ومن في حكم هؤلاء جميعًا سنًّا أو مقامًا أو حالاً أمانات ، والمحافظة على الوطن والموت دونه أمانات ، وتحقيق نهضته أمانات ، وفي قمة تلك الأمانات الدراسات العلمية والبحثية .

إنَّ طلب العلم طريق ليس بالسهلة اليسيرة ، وإنَّ العمل في هذا الميدان يحتاج إلى أمور ينتظمها مصطلح الأمانة ، فالتحقيق والتوثيق والتأصيل وتحرير المسائل ،

وتلمس الأدلة ، وصناعة البراهين ، وتدبيج الحجج والدقة في الإعراب عن كل ذلك روحه الأمانة .

وممَّا يشمله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (النساء:٥٨).

ذلك التوثيق العلمي الذي يلح عليه المنهاج الأكاديمي في تراثنا : ((من بركة العلم نسبته إلى أصحابه)) .

وقد نعى ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ على الذين يجري على ألسنتهم أو على أسلات أقلامهم أقوال لا يعي صاحبها مضامينها ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ (النور:١٥) ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ (الأحزاب:٤) .

وقد نُهينا في القرآن الكريم أن نتتبع ما ترفض الأمانة تتبعه فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ (الإسراء:٣٦).

ونزيِّل على ذلك كله فنقول :

يكفي الأمانة شرفًا أنَّ الله جعلها من أبرز صفات المرسلين ، فكم منهم من قال لقومه : ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾ (الشعراء:١٠٧) .

ومن هنا نقول : إنَّ المنهج العلمي الذي ورثناه كابرًا عن كابر ، والتقت كلمة العلماء على صحته ، وتلقفته الأمة بالقبول هو ذلك المنهج الذي يرتسم فيما ورثناه عن شيوخ العلم الأشاعرة تحقيقًا وتدقيقًا وتأصيلاً وتحليلاً ، بحيث يجمع بين نور النقل ومنطقية العقل ، أمَّا تلك الفرقعات التي لا جوهر لها ، ولا سند لعلمها ، ولا مرتكزات من العقل أو النقل لدعواها ، فهي رجمٌ بالغيب ، وقولٌ في

الدين بغير سلطان أتاهم ، وخوضٌ في دين الله من حيث لا يشعرون ، وضلالٌ مبينٌ ، وإضلالٌ لخلق الله ، والله من ورائهم محيط .

انطلاقًا من كل ذلك ، فلا غرابة أن نسجت خيوط هذه الرسالة ((أشعريٌّ أنا)) .

● المقدمة الرابعة : العقيدة بين منهج الأشاعرة وسطحية النزعات المتسلفة

● أولاً : ماهية العقيدة الإسلامية

في البداية لابد من تحديد ماهية العقيدة الإسلامية ، ولا نجد في منجزات علماء العقيدة المعاصرين أسدَّ في ذلك وأوفى ممَّا ذكره فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر حيث قال : «العقيدة ـ في معناها اللغوي ـ مأخوذةٌ من مادة ((عقد)) بمعنى : ربط أو شد أو عزم ، سواء تعلق معنى العقد والربط بأشياء مادية أو أمور معنوية ، فكما يقال : عقد الخيط ؛ بمعنى : أحكم ربطه وشده ، يقال : عقد قلبه على كذا ؛ بمعنى : اعتقده وصدق به ، ويستشهد على هذا المعنى بقوله ﷺ : ((الخيل معقودٌ في نواصيها الخير)) [(1)] ؛ أي : ملازمٌ لها ومشدودٌ إليها[(2)] .

وأصل اشتقاقات هذه المادة في اللغة هو : العقد ؛ بمعنى : الإحكام والتوثيق والتأكيد ، ومن هنا قيل : عقد اليمين ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، فإذا قيل : انعقد قلبه على الإيمان بقضيةٍ ما ، أفاد ذلك ثبوت هذه القضية في قلب المعتقد ، وتمكنها فيه بصورةٍ لا تقبل النقيض .

ونلاحظ أنَّ المعنى اللغوي للفظ (العقيدة) يدل على ثبوت الاعتقاد في القلب وتمكنه منه ، بغض النظر عن منشأ هذا الاعتقاد ومصدره ، فسواء كان الاعتقاد حقيقيًّا أو اعتقادًا باطلاً ؛ فإنَّه يسمى (عقيدة) في العرف اللغوي .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) يراجع : لسان العرب ٣/٢٩٨ مادة (عقد) .



أمَّا في اصطلاح العلماء ؛ فإنَّ العقيدة هي : (ما يجب اعتقاده على المكلف ؛ كوجوب وجوده تعالى ووجوب قدرته) ، ويفهم من قوله تعالى : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد:١٩) أنَّ العقيدة هي العلم ، وأنَّهما متساويان في المفهوم ، وهذا ما نجده ـ فعلاً ـ عند علماء العقيدة حين يذهبون إلى أنَّ الاعتقاد والعلم والمعرفة كل ذلك بمعنى واحدٍ ، ويعرفون العلم بأنَّه : (الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، الناشئ عن دليل) [١] .

والعقيدة بهذا المعنى الإسلامي لا تنطبق إلا على العقيدة الصحيحة فقط ، ولابد فيها من شرط الجزم والثبات في المعتقد ، حتى تتميز عن حالات الشك والظن والوهم ، كما يشترط فيها صحة الاعتقاد ، وهو ما يعبرون عنه بمطابقة الواقع ؛ أي : مطابقة الاعتقاد للحقيقة ونفس الأمر ، وهو شرط يميزها عن المذاهب والآراء الباطلة التي يدين بها كثير من الناس .

وهكذا تتميز العقيدة في الإسلام بأنَّها : «اعتقاد جازم ، مطابقٌ للواقع ، ناشئ عن دليلٍ ، وهذا هو الاعتقاد الحق ، والعلم الصحيح ، والمعرفة اليقينية» . اهـ[٢] .

• ثانيًا : طرق إثبات العقيدة

لكي تنهض العقيدة قويةً فتيةً فلابد من ركائز تدعمها وتكفل نباتها وقوتها واستعصاءها على كل العسوف الفكرية والتيارات المذهبية ، ولكي تثبت العقيدة هذا الثبات لابد أن تستلهم من مصادر يقينية جازمة لا يتسلل إليها ظلٌّ من الاحتماليات ، وإلا فإنَّ العقيدة نفسها تكون مرتعشة تعاني من زئبقية تخلع عنها مصطلح كونها عقيدة ، والأمر كما يقول فضيلة الإمام الأكبر : «إذا كان الطريق يقينيًا كانت العقيدة علمًا يقينيًا صادقًا لا يقبل ما يُناقضه ، وإذا كان الطريق ظنيًا

(١) التعريفات للجرجاني ، ص ١٦٠ .

(٢) مقومات الإسلام ، فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أحمد الطيب ص ١٤-١٦ .



أو مشكوكًا في أمره لم يكن الاعتقاد الناشئ عنها إلا ظنًّا قابلاً للاحتمال أو شكًّا يخلد إلى الوهم والخيال ، وكل منهما ليس من العقيدة في شيء» . اهـ[1] .

ومضيًّا في هذا الطريق نجد لعلماء العقيدة الإسلامية نهجًا في غاية الدقة يحصرون به طرق العقيدة الصحيحة في عوامل ثلاثة يسمونها أسباب العلم ، وهي أسباب تعطي للمعرفة أو العقيدة الحاصلة بها وصف اليقين الذي لا يتبدل ولا يزول ، هذه الأسباب هي : (الحواس السليمة - الخبر الصادق - العقل) ، وسوف يأتي بيانها تفصيلاً قريبًا .

• ثالثًا : مسائل العقيدة الإسلامية

يقتصر مدخلنا هنا على العقائد الإسلامية التي جاء بها القرآن ، وزادتها تفصيلاً وبيانًا السنة النبوية المتمتعة بالحجية ، وهذه العقائد هي : (الإيمان بالله - تعالى - ، الإيمان بالرسل ، الإيمان باليوم الآخر) أو ما اصطلح عليه في المناهج العلمية والمناهج الأزهرية بـ(الإلهيات - والنبوات - والسمعيات) .

وما يتصل بقضايا العقيدة ومسائلها مما يطلب من مظانه من المصادر العلمية التي هي ثمرة لمذهب أهل السنة والجماعة (الأشاعرة والماتريدية) .

وننبِّه إلى أنَّ العقيدة في لسان القرآن ترادف الإيمان ، وهي جماع فروعه ، وسوف ندرس فيما بعد مسائل العقيدة مما يتعلق بالإلهيات والنبوات والسمعيات ، ملتزمين في دراستنا إياها بمذهب أهل السنة والجماعة (الأشاعرة والماتريدية) .

• رابعًا : مناطحةٌ صبيانيةٌ لجبلٍ صلبٍ أشمٍّ

على الرغم من وضوح مسائل العقيدة وقضاياها في المصادر الأشعرية والماتريدية الموثوقة المستقاة من مصادرها الثلاثة الآنف ذكرها ، تلك العقيدة

---

(١) مقومات الإسلام ، ص ١٧ .



التي تمثل جبلاً صلبًا وصلدًا أشم تتقاذف على السطح فقاعات ساذجة تحاول مناطحة هذا الجبل مرتدية عباءة المتسلفة ، والسلفية منهم براء .

فراحوا يزعمون ـ والزعم مطية الكذب كما هو معروفٌ ـ عدة مزاعم هي في جملتها عبارة عن ألواح من الثلوج ما تلبث أن تذوب حين تشرق عليها شمس الحقيقة .

وفي مقدمة هذه الزعوم ما يلي :

الزعم الأول : أنَّ تعلم العقيدة على نهج الأشاعرة والماتريدية والتي تبناها الأزهر الشريف بدعة .

ونُبادر فنقول : هذا كلامٌ لا يكتنز أدنى مضمون يُحترم ، فما وجه البدعة في مناهج الأشاعرة في الأزهر الشريف؟ وهل كل ما استحدثته العقول من تفصيلات دقيقة للمنهج العلمي ، وكيفيات محددة للاستنباط والاستنتاج من النصوص يتم مقته بحجة أنَّه بدعة؟!

لو كان الأمر كذلك فنحن نعيش في علوم هي منظومة من البدع .

وهل يستطيع هؤلاء أن يضعوا أصابعنا على مفردة وحيدة في أي مسألة من مسائل العقيدة يصدق عليها أنَّها غير مستقاةٍ من كتاب الله ومن السنة الصحيحة؟

الحق أنَّ العقيدة الإسلامية الصحيحة من حيث مسائلها تتجلى في إثبات أنَّ الله واجب الوجود ، وأنَّه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ، وأنَّه جلَّ شأنه متصفٌ بكل كمال يليق بذاته المقدسة ، وأنَّه منزهٌ عن كل نقص لا يليق به ، وأنَّه سبحانه وتعالى فعال لما يريد ، وأنَّه خالق كل شيء ، وأنَّ النبي علَّم أمته العقيدة ، علَّمهم الإيمان بالله ـ تعالى ـ وبرسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر ، وشرح ذلك للصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ ، وأسلم الناس على هذه العقائد .



فكيف يزعمون - والحال هذه - أنَّ هذه العقيدة لا تتسق وما جاء به القرآن؟!

وهل مبنى العقيدة عند السادة الأشاعرة والماتريدية وكما يدرِّسها الأزهر الشريف تقوم على غير هذه الركائز؟!

ثم الحق أنَّ وجود أشباح لهذه الفقاعات على سطح المحيط الفكري هو البدعة، بل لا نخطئ الحقيقة حين نقول: (إنَّها لإحدى الكبر).

الزعم الثاني: الحق أنَّ هذا الزعم امتدادٌ للزعم الأول يسقطه ما أسقط أوله، يتمثل هذا الزعم في أنَّ هؤلاء المراهقين علميًّا يزعمون أنَّ الاتكاء على أدلة عقلية في أمور العقيدة بدعة تخالف منهج القرآن والسنة في الاستدلال على المسائل العقدية.

والردُّ على هذا الزعم من عدة وجوه أهمُّها:

١- إنَّه زعمٌ يعلن برفض العقل وإسقاطه، والعقل هو مناط التكليف، وغير العاقل بأي سببٍ مرفوعٌ عنه القلم، وهل ينعدم الحساب في الآخرة للجمادات وما إليها إلا على أساس أنَّها لا تعقل ؟! ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص:٥)

٢- في القرآن الكريم نقرأ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:٤٤)، ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص:٧٢)، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (يونس:٣)، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:٧٣)، ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام:٩٨)، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد:٢٤).

فأي مصادمة نكراء تصادمها هذه الفئة المتسلفة لصريح القرآن الكريم حين يزعمون أنَّ إيداع الأدلة العقلية لدعم القضية العقدية ليس من منهج الرسول ﷺ والصحابة؟

إلا إذا كان منهج الرسول ﷺ والصحابة لا صلة له بالقرآن الكريم وحاشاهم ذلك!!



٣- النبي ناقش وحاور قريشًا في وثنيتها ، وناقش وحاور ـ كذلك ـ أهل الكتاب في عقائدهم ، ناقش هؤلاء جميعًا بأساليب متعددة .

فهل نستطيع أن نحكم على أسلوبٍ اتبعه مع أهل الكتاب وخالف معه أسلوبه مع الوثنيين في مكة أنَّه كان ـ حاشاه ـ مبتدعًا؟!!

وهل نستطيع في منطق العقل أن نقول : إنَّه عندما حاور إنسانًا جاهلاً بأسلوبٍ ، وحاور إنسانًا آخر بأسلوبٍ آخر أنَّه كان مبتدعًا؟!!

الجواب : كلاً وألف كلاً .

إنَّما تكررت الأساليب في قضايا العقيدة بحسب تنوع الأشخاص والمذاهب والثقافات وما شابه ذلك .

إذًا الأدلة والحوارات والمناقشات هي في الأصل أدوات ووسائل تستعمل لتثبيت العقيدة في الفؤاد ، وإزالة الشبهات .

ومن هنا نقول : إذا استعملنا أسلوبًا جديدًا لإزالة عقيدة فاسدة فنحن نقتل بدعةً ، ولا نصنع بدعة ، ونحن ـ كذلك ـ إذا استعملنا أدلة علمية عقلية على من ينكر وجود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نكون قد أزلنا بدعة ، وهكذا دواليك .

٤- البيان القرآني استعمل في إثبات العقائد أدلة علمية متنوعة ، فمرةً يستعمل ما أسماه العلماء لاحقًا : بطلان الرجحان بدون مرجح ، وبطلان الدور ، وذلك في قوله : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور:٣٥) فالإنسان لم يخلق نفسه ، ولم يخلق أولاده ، ولم يخلق الأرض التي يدرج فوقها ، ولا السموات التي يعيش تحتها .

والعجيب أنَّ البشر الذين ادعوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك ، فمن المقطوع به أنَّ وظيفة الخلق والإبراز من ساحة العدم إلى ساحة الوجود لم ينتحلها إنسان لنفسه ، ومن المقطوع به ـ كذلك ـ أنَّ شيئًا لا يحدث من تلقاء



نفسه ، فلم يبق إلا الله ، وهذا ما قرره بيان الله في قوله : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ (الطور:٣٥) .

والقرآن ناقش المشركين طبقًا لميزان العلة الغائية الماثلة في الكون ، ونبَّه أفكار المشركين إلى بطلان الشريك لله ـ تعالى ـ طبقًا لما يقتضيه برهان التمانع ، كما نبَّه إلى ضرورة وجود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ استدلالاً كما قلنا بقانون بطلان الدور ، وقانون بطلان الرجحان بلا مرجح .

وبرهان التمانع نجده في قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٢) .

وبرهان ظاهرة العلة الغائية واضحٌ في تلك الآيات الكونية التي يلفت البيان القرآني فيها النظر إلى ظاهرة التناسق في خلق المكونات من مثل قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس:٣٨-٤٠).

من الذي هيمن على نطاقها ، وأشرف على مدارها؟ ومن الذي أمسك بأجرامها الهائلة ، ودفعها تجري بهذه القوة الفائقة؟

إنَّها لا ترتكز في علوها إلا على دعائم القدرة ، ولا تطير إلا بأجنحةٍ أعارها لها القدر الأعلى .

واستعمل البيان القرآني ـ كذلك ـ ما أسماه العلماء فيما بعد بدليل الحدوث ، قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان:١) . إننا لم نكن شيئًا فكنَّا ، فمن كوَّننا؟ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام:٩١) [1] .

---

(١) يُراجع : عقيدة المسلم للغزالي ، ص ١٤ ، وكبرى اليقينيات للبوطي ، ص ١٩ .



فأي دستور تريده من القرآن أكثر من هذا كي تطمئن إلى أنَّ مناقشة أصحاب الشبهات طبقًا لمقتضى الأدلة والبراهين التي يتعاملون بها هو من صميم المنهج القرآني .

من أجل هذا لا نرى علمًا ما يتخرصه متسلفة اليوم من أنَّ علماء الكلام من الأشاعرة والماتريدية أفسدوا صفاء التوحيد بما حشدوا في كتبهم من قواعد عقلية ، ومبادئ منطقية ، وأنَّه كان يغنيهم عن ذلك اتباع منهج القرآن .

نقول : ليس علمًا ولا أمانة أن يقال عنهم شيء من هذا الكلام ؛ وذلك لأنَّ مباحث العقيدة لم يؤلف شيء منها لمن آمن فحسب ، وإنَّما أُلفت ـ كذلك ـ لزنادقةٍ اتكأوا في زندقتهم على شُبَهٍ فلسفية ، وفرق شاذة اتكأت في شذوذها على تكلفات عقلية ، وكانوا ـ رحمهم الله ـ بين أن يسكتوا عن لغو أولئك الزنادقة ، وفيهقة هؤلاء المتنطعين ، فيشيع في الناس أمرهم ، ويتسع إلى العقول الغافلة طريقهم ، وبين أن يتصدوا لهم فيكشفوا عن زيف شبههم ، وسفسطة أدلتهم ، وفساد طريقتهم ، فلم يترددوا في أن يؤثروا الثاني على الأول استجابةً لما تقضي به ضرورة الدعوة إلى العقيدة الإسلامية[1] .

ومن هنا فمنهج دراسة العقيدة في الأزهر الشريف يعيد الناس إلى الكتاب والسنة ، ويُطفىء نار البدعة ، ومن ثَمَّ فاستعمال هذا المنهج لا يتعارض البتة مع الكتاب والسنة ، بل يتفق مع الغرض الأساس من سوق آيات الاعتقاد في الكتاب ، وأنَّه يُطفىء نار البدعة ، ولا يغرسها كما يتوهم هؤلاء الجهلاء .

• خامسًا : الثمرات التي تنشدها من دراسة عقيدة أهل السنة

وقبل بيان هذه الثمرات نريد أن نبيِّن أنَّ قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) شهادةٌ

(١) يُراجع : كبرى اليقينيات للبوطي ، ص ٢٣ .

من الله تشمل كل أركان هذا الدين من عقيدة وتشريع وسلوك ، ونبيِّن - كذلك - أنَّ الإسلام مكون من عقيدة هي الأساس ، ومن أحكام تشريعية هي الجذع المبني على هذا الأساس ، ومن أخلاق هي الثمار التي تُجنى من هذا الأساس ومن ذاك الجذع .

وننبه إلى أننا لا نستطيع أن نقفز إلى مكارم الأخلاق دفعةً واحدةً ، بل لابد من بذور العقيدة السليمة ومن سياج الأحكام الشرعية القويمة ، ثم بعد ذلك تأتي الأخلاق المستقيمة ، قالت عائشة رضي الله عنها : **«أَوَّلُ مَا نُزِّلَ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ لِلإِسْلاَمِ نُزِّلَ الْحَلاَلُ وَالْحَرَامُ ، وَلَوْ نُزِّلَ أَوَّلُ شَيْءٍ لاَ تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا : «لاَ نَدَعُ شُرْبَ الْخَمْرِ ، وَلَوْ نُزِّلَ أَوَّلُ شَيْءٍ لاَ تَزْنُوا» لَقَالُوا : « لاَ نَدَعُ الزِّنَا ، وَإِنَّهُ أُنْزِلَتْ ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾** (القمر:٤٦) **بِمَكَّةَ - وَإِنِّي جَارِيَةٌ أَلْعَبُ - عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلاَّ وَأَنَا عِنْدَهُ » قَالَ : «فَأَخْرَجَتْ إِلَيْهِ الْمُصْحَفَ فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ»**[١] .

إذًا الإيمان أولاً ، والأحكام ثانيًا ، والأخلاق ثالثًا .

أجل الإيمان أولاً ، ومن ثمَّ تجرع أصحاب رسول الله - رضوان الله عليهم - ألوانًا من العذاب حتى مات منهم من مات تحت وطأة العذاب ، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيءٌ ، ويطول بنا المقال لو ذهبنا نسرد نماذج عديدة عن العذاب الذي لاقاه كل منهم ، ولكن يكفينا في هذا المقام أن نقول : ما الذي جعل بلالاً رضي الله عنه يصبر على التعذيب؟ وتوضع الصخرة على صدره وهو يقول : أحدٌ أحدٌ؟

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى - كتاب فضائل القرآن - باب كيف نزل القرآن رقم الحديث (٧٩٣٣) .



وما الذي جعل خباب بن الأرت يأتي إلى النبي ﷺ ويقول : يا رسول الله ، أما ترى ما نزل بنا؟! ألا تدعو الله لنا؟! فقعد ﷺ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ ، فَقَالَ : «**لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ ، مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ ، مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ**»[1] .

- **ثم الثمرات التي ننشدها من دراسة العقيدة فهي على النحو الآتي :**

١- العقيدة هي الأساس في تمام الاستقامة بين العبد وربه ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ (فصلت:٣٠) ، وقال النبي ﷺ : «**قُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»[2] .

وفي آيات كثيرة عطف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ العمل الصالح على الإيمان ، من ذلك : قوله تعالى : ﴿ **وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ** ﴾ (العصر:١-٣) . وقال ﷺ : «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»[3] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب مناقب الأنصار ـ بَابُ مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ المُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ ، رقم الحديث (٣٨٥٢) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ بَابُ جامع أوصاف الإسلام ، رقم الحديث (٣٨) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ بَابُ الْحَثِّ عَلَى إِكْرَامِ الْجَارِ وَالضَّيْفِ ، وَلُزُومِ الصَّمْتِ إِلَّا عَنِ الْخَيْرِ وَكَوْنِ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الْإِيمَانِ ، رقم الحديث (٤٧) .

ومن هنا نتبين أنَّ الاستقامة على أوامر الله والعمل الصالح هما نتيجة لسلامة الاعتقاد .

٢- العقيدة هي الشرط في قبول الأعمال ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإسراء:١٩) ، وقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٧) .

إنَّ النصوص الهادية إلى أنَّ الإيمان الصحيح شرطٌ في قبول الأعمال كثيرة يزخر بها بيان الله ، وتستفيض بها السنة المتمتعة بالحجية .

٣- العقيدة الإسلامية هي التي تجيب الإنسان عن الأسئلة الكلية الكبرى : من أين جاء؟ وإلى أين المصير المحتوم؟ ولماذا جيء به إلى هذه الحياة؟

٤- العقيدة الصحيحة هي التي تحمي الإنسان من الزيغ والزلل والشبهات .

* * *

الإمام أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ)
وأصول منهجه في تقرير مسائل الاعتقاد

تمهيد : بدايةً نتساءل عن سر المكانة التي نالها الإمام أبو الحسن الأشعري من دون الآخرين ، وعن مصدر هذا الإجلال الذي يحيط به ، بل عن سر إعجاب الفكر العالمي به .

ولقد استقر في الذهن بعد تأمل ورويَّة أنَّ مصدر ذلك كله يتمثل في مزيتين اثنتين امتاز بهما ذلكم الإمام عن أقرانه ، وعن الذين جاءوا من بعده ، وكثير ممن خلو من قبله :

المزية الأولى : الجمع بين العقل والنقل وإنهاء الخصومة المصطنعة بينهما ، والتي تسيطر الآن على بعض الأفهام ممن لم يدرسوا معقولاً ولا منقولاً ، ثم يخوضون في أمورٍ كبرى يستحيل أن تتسع لها عقولهم ، كما سنبينه فيما بعد .

المزية الثانية : الإنصاف العلمي مع الخصوم وروح التسامح وكراهة الشقاق والتكفير العشوائي ، كما يتجلى ذلك في عنوان كتابه (مقالات الإسلامين ، واختلاف المصلين) ، وفي بيان ذلك يروي لنا الحافظ ابن عساكر في كتابه (تبيين كذب المفتري) عن الإمام الأشعري أنَّه حين قرب حضور أجله في بغداد قال لأحد تلامذته : « اشهد عليَّ أنِّي لا أُكفِّر أحدًا من أهل القبلة لأنَّ الكل يشيرون إلى معبود واحد ، وإنَّما هذا كله اختلاف العبارات» .

والإنصاف العلمي وروح التسامح هي السمة العامة بل الخصيصة الكبرى التي اتسم بها منهج الإمام أبي الحسن الأشعري الذي لا يُكَفِّر أحدًا من المسلمين إلا بموجب الكفر .

وهكذا فإنَّ وسطية منهج الإمام الأشعري جعلت لمنهجه وعقيدته الاستمرار في قلب المعاهد العلمية العريقة ، وفي نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

وممَّا ينبغي أن نلتفت النظر إليه في هذا التمهيد أنَّ الإمام الأشعري حمل قلمه لمواجهة الفكر بالفكر أمام الفرق التي تنكبت طريق أهل السنة والجماعة ، وفصلت بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، ولم يكن سبيله في ذلك السيف الخارجي ولا السوط المعتزلي ، وإنَّما القلم الأشعري .

ولو أنَّ المنتسبين للإسلام من بعض الجماعات المتطرفة درسوا منهج الأئمة السابقين ، ونخلوا أقوالهم وحاوروا كتبهم عن كثب لفقهوا بعد جهالة ، وهدوا بعد ضلالة ، ولعلموا أنَّ دين الإسلام هو دين الحوار العلمي لا التعصب ، والسلم لا الحرب ، والحب لا الكراهية ، والوحدة لا الفرقة .

ولو أنَّ الناس التزموا هذه الوسطية لنُشِر الأمن والسلام بين الناس جميعًا ، ولنُبِذَ العنف الذي أطل بوجهه الكريه على الأبرياء والآمنين ، من جرائم التفجير والتدمير والترويع وقتل النفوس المعصومة التي يرزح تحت نيرها العالم الآن .

• موجز لسيرة حياته :

ولد الإمام أبو الحسن بن إسماعيل الأشعري بالبصرة سنه ٢٦٠ هـ ، وتوفي عام ٣٣٠ هـ ، وقيل : عام ٣٢٤ هـ[(١)] .

ظهر هذا الإمام في وقتٍ كثرت فيه الفرق الصغيرة المتناثرة التي اشتغلت بتكفيرها بعضًا ، واشتدَّ أمر المعتزلة فأصبحت أقوى تلك الفرق وأشدها دعوةً لمذهبها وجدالاً للآخرين لاسيما المحدثين والفقهاء .

---

(١) ينظر : تحقيق تاريخ وفاة الإمام الأشعري في كتاب تبيين كذب المفتري ، ص١٤٦ ، ١٤٧ .



وفي بيان ذلك يقول الشيخ أبو زهرة في كتابه (المذاهب الإسلامية) : «اشتدت حملة المعتزلة على الفقهاء والمحدثين ولم يسلم من حملتهم فقيه معروف أو محدث مشهور ، فكرههم الناس وصاحب ذكرهم البلاء والمحن ، وتأرثت العداوة[1] حتى نسى الناس خيرهم ، فنسوا دفاعهم عن الإسلام وبلائهم فيه ، وتصديهم للزنادقة وأهل الأهواء ، نسوا هذا كله ولم يذكروا لهم إلا إغراءهم الخلفاء بامتحان كل إمام تقيٍّ وكل محدث مهديٍّ . . . . . . إلى أن قال : «وظهر في آخر القرن الثالث رجلان امتازا بصدق البلاء : أحدهما أبو الحسن الأشعري ، ظهر بالبصرة ، والثاني أبو منصور الماتريدي ، ظهر بسمرقند ، وقد جمعهما مقاومة المعتزلة على اختلافٍ بينهما في القرب من المعتزلة والبعد عنهم»[2] .

ولقد كان أبو الحسن الأشعري معتزليًا في أول أمره تمرس بدراية أفكارهم ومعرفة أساليبهم في الجدال والنقاش ، وأقبل مثلهم إلى علوم الفلسفة ، ودرس الكثير منها ، ولكنَّه تبرأ بعد ذلك منهم وأعلن توبته من اعتناق أفكارهم في شجاعة تُحسب له في ذلك الوقت ، ثم انتصر للحق الذي دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسوله بلسانه وبنانه ، فعقد مع الفِرَق المختلفة المناظرات العلمية لاسيما المعتزلة ، فألزمهم بنفس أساليبهم نظرًا لدرايته بالفلسفة اليونانية التي هي جل معتمدهم منهجًا وأسلوبًا لا فكرًا واعتقادًا .

ولكن لماذا أبو الحسن وحده الذي ذكره لنا التاريخ مجابِهًا للمعتزلة كفؤًا غير مخذول ، مع أنَّ معاصريه من الفقهاء والمحدِّثين مع خلافهم للاعتزال جمٌّ غفيرٌ؟

والجواب : جميع المحدِّثين كانوا منصرفين عن علم الكلام والفلسفة إلى دراسة ما هم بصدده من دراسة الحديث النبوي روايةً ودرايةً ، أو دراسة الأحكام الفقهية

---

(١) تأرثت العداوة : أي : اشتعلت بشدة .

(٢) المذاهب الإسلامية ، ص ٢٦٥ .



واستنباطها من مصادرها الشرعية ، ناهيك عن عدم دراية أكثرهم بالأساليب المنطقية والفلسفية التي روَّجها المعتزلة حينذاك .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن : كيف ترك أبو الحسن الاعتزال ومتى ولِمَ؟

خير مَنْ يجيبنا على ذلك : ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ في كتابه الذي خصصه في الدفاع عن الشيخ أبي الحسن (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري) .

قال - رحمه الله - يروي عن إسماعيل بن أبي محمد بن إسحق الأشعري - رحمه الله - : «الأشعري شيخنا وإمامنا ، ومَنْ عليه معوَّلنا ، قام على مذهب الاعتزال أربعين سنة ، وكان لهم إمامًا ، ثم غاب عن الناس خمسة عشر يومًا ، فبعد ذلك خرج إلى الجامع فصعد المنبر ، وقال : معاشر الناس إنِّي إنَّما تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ، ولم يترجح عندي حق على باطل ، ولا باطل على حق ، فاستهديت الله - تبارك وتعالى - فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع كل ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ، ودفع الكتب إلى الناس ، فمنها كتاب (اللمع) ، وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه بكتاب (كشف الأسرار وهتك الأستار) وغيرهما ، فلمَّا قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة أخذوا ما هو فيه وانتحلوه ، واعتقدوا تقدُّمه ، واتخذوه إمامًا حتى نُسب مذهبهم إليه»[1] .

---

(١) تبيين كذب المفتري ، ص٤٠ .



● الإمام الأشعري نصير مذهب أم منشئ مذهب ؟

اجتمعت كلمة الأئمة والعلماء الذين جاءوا بعد الإمام الأشعري على أنَّه لم يبتدع مذهبًا ولم يُنشأ فرقةً جديدةً كالفرق التي كانت موجودة آنذاك وتنكبت ما ورثته الأمة عن عصر الصحابة ـ رضى الله عنهم .

وفى بيان ذلك يقول ابن عساكر ناقلاً عن الإمام أبي القاسم القشيري ما نصه :

« اتفق أهل الحديث أنَّ أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري كان إمامًا من أئمة أصحاب الحديث تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ، وردَّ على المخالفين من أهل الزيغ والبدع »[1] .

ويقول ابن السبكي في طبقات الشافعية : « اعلم أنَّ أبا الحسن لم يبدع رأيًا ، ولم يُنشأ مذهبًا ، وإنَّما هو مقررٌ لمذهب أهل السلف ، مناضلٌ عمَّا كانت عليه صحابة رسول الله ﷺ ، فالانتساب إليه إنَّما هو بأنَّه عقد على طريقة السلف نطاقًا وتمسك به ، وأقام الحجج والبراهين عليه ، فصار المقتدى به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يُسمَّى أشعريًا »[2] .

ويقول بن خلِّكان : « هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب أهل السنة ، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية »[3] .

ويقول ابن العماد : « وقد بيَّض الله به وجوه أهل السنة النبوية ، وسوَّد به رايات أهل الاعتزال والجهمية ، فأبان وجه الحق الأبلج ، ولصدور أهل العلم والعرفان أثلج »[4] .

---

(١) تبيين كذب المفتري ص١١٢ ، ١١٣ .

(٢) طبقات الشافعية ٣/٣٦٥ .

(٣) وفيات الأعيان ٢/٣٦٢ .

(٤) شذرات الذهب ٢/٣٠٣ .

أقول : وعلى الرغم من وضوح هذه الدلائل كلِّها من تعريف الإمام الأشعري ذاته بنفسه ، وتأكيده المتكرر أن يقول في مسائل العقيدة كلها بما يقول به أصحاب رسول الله ﷺ وأهل السنة ، فإنَّ في الناس من يدَّعي العلم والانتساب إلى السلف مَنْ يُصرُّون لحاجةٍ في أنفسهم على أنَّـه هو وأتباعه جنحوا عمَّا كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، وهذا وهمٌ كبيرٌ وخطيرٌ تصنعه هذه الثلة وقدوتهم في ذلك جماعة المستشرقين[1] .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما عمل أبي الحسن الأشعري؟

والجواب : كان عمله محصورًا في جانبين :

الجانب الأول : بيان ما كان عليه جماعة المسلمين منذ عصر النبوة مدعومًا بنصوص قاطعةٍ وأدلةٍ عقليةٍ داعمةٍ لم تكن معهودة في الاستدلال على مسائل الاعتقاد من قبله ، وهذا جانب من جوانب التجديد عند الشيخ .

الجانب الثاني : كنس الوساوس الفكرية التي تنشرها الفرق الخارجة عن الجادة العريضة ، وإبطال دعاواهم ، ودحض شبههم بنفس طرقهم في الاستدلال ، وأن تعود الأمة إلى الاستمساك بقوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (الأنعام:١٥٣) .

وبعد هذا كله ففي الناس ـ كما قلنا ـ مَنْ يُصرُّ على أنَّ الأشعري أنشأ فرقةً خارجةً عن معتقد أهل السنة والجماعة ، نظرًا إلى أنَّ أصوله الاعتقادية من وجهة نظر هؤلاء مخالفة لما كان عليه السلف الصالح .

---

(١) ينظر : بحث شيخنا العلامة البوطي ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ (الإمام أبو الحسن الأشعري) ، ص ٤ .

وأقول : إنَّ أي إنسان يستطيع أن يطرح هذه الدعوى أو غيرها على طريقةٍ من التجاهل للدليل القاطع ، ولكن من البدهي أنَّه لا يستطيع أن يلزم بها أحدًا من العقلاء .

والسؤال : ما الذى قدَّمه أصحاب هذه الدعاوى من البراهين العلمية على أنَّ الإمام الأشعري كان صاحب فرقةٍ خارجةٍ عن معتقد أهل السنة والجماعة؟

ونحن عندما نلجأ إلى الميزان العلمي المحكم في حق الإمام الأشعري من خلال منهجه العلمي ، وأصوله الاعتقادية نجد أنَّه لم يخرج في كتبه عمَّا عليه الصحابة الكرام ، ومن باب تداعي المعاني : هل مَنْ يقول بقيام الحوادث بذات الله وبالقدم النوعي للعالم ، وأنَّ الله جالس على العرش حقيقةً ، وأنَّه لو شاء لاستوى على ظهر بعوضة ، وأنَّ زيارته ﷺ سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة ، والصعود والهبوط الحسيان لله ـ تعالى ـ إلى غير ذلك ممَّا سيأتي بيانه ، قائل بما كان عليه الصحابة ، سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ؟

فإن قيل : إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم ينسب ما كان عليه هو وأتباعه إلى الصحابة ، ومن ثَمَّ فلا يقال أشعري ولا أشاعرة؟!

وفى بيان ذلك نقول : نسبت عقيدة أهل السنة والجماعة إليه بسبب أنَّه هو الذي قام من دون بقيه علماء السنه بالدفاع عنها ، والتدليل عليها ، وتزييف ما يخالفها من بدع الفرق الأخرى بالتأليف تارة ، وبالمناظرات أخرى ، فنسب الناس كل مَنْ يقول بقوله من أهل السنة والجماعة إليه ، ومن ثمَّ انتشر اسمه في الآفاق وتواردت عليه المسائل من أقطار العالم فأجاب عنها ، وعمَّ مذهبه الذي سُمِّي بمذهب أهل السنة والجماعة في بلاد العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب ، ودانت له ـ كما



يقول علامة المعقول والمنقول الشيخ محمد زاهد الكوثري - أهل البسيطة إلى أقصى بلاد أفريقية[١] .

وذكر العز بن عبد السلام أنَّ أتباع المذاهب الأربعة يدينون بهذه العقيدة ، فمنهم المالكية كافة ، ومعظم الشافعية ، وقسم كبير من الحنفية ، وكثير من الحنابلة ، ومن لم يكن من هؤلاء من أتباع الإمام الأشعري فهم من أتباع أبي منصور الماتريدي كقسم من الحنفية وبعض الشافعية[٢] .

ونحب أن نلفت النظر إلى أنَّ الفرق بين الإمامين الأشعري والماتريدي محصور في مسائل جزئية اجتهادية ، والخلاف في كثير منها لفظي ، وقد عني كثير من العلماء بجمع نثارها فحصرها بعضهم في عشر مسائل ، وجمعها ابن السبكي في ثلاث عشرة مسألة ، وقال : منها معنوي وهو ست مسائل ، والباقي لفظي ، وتلك الست المعنوية لا تقتضي مخالفتهم لنا ، ولا مخالفتنا لهم تكفيراً ولا تبديعًا ، صرح بذلك أبو منصور البغدادي وغيره من أئمتنا وأئمتهم[٣] .

● الأشعري والعقيدة التي لقي الله عليها

من المغالطات ما سطره بعضهم حول زئبقية المعتقد لدى الإمام الأشعري ، وذلك يتجلى في قولهم : إنَّ الإمام قد تأرجح في فكره العقدي عبر مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة الاعتزال التي دامت أربعين سنة .

الثانية : مرحلة اتباعه لعبد الله بن كُلَّاب .

الثالثة : مرحلة رجوعه إلى عقيدة السلف ، وظل عليها حتى لقي الله .

---

(١) ينظر : مقدمة (تبيين كذب المفتري) للشيخ محمد زاهد الكوثري ، ص ١٥ .

(٢) طبقات الشافعية ٣/٣٧٨ .

(٣) طبقات ابن السبكى ٦/٣٦٥ .

ومعنى هذا الكلام أنَّ اتِّباعنا للإمام الأشعري اتباع له في مرحلة عدل عنها إلى السلفية التي اعتنقها أخيرًا ، وعليها مات ، ونحن بإزاء ذلك نقول :

إنَّ الإمام الأشعري ـ رحمه الله ـ علم من أعلام المسلمين ، يُشار إليه بالبنان ، وتعقد على كلماته الخناصر ، فهو ليس بنكرةٍ من الناس ، ولا برجلٍ مجهولٍ يخفى على الناس أمره لا سيما في قضيةٍ مثل هذه التي نحن بصددها ، فلو كان الأمر كما جاء في الدعوى ، وأنَّه مر بثلاث مراحل في حياته ، فلابُدَّ أن يكون المؤرخون قد ذكروا هذا وبيَّنوه ، ولكان ـ حتمًا ـ قد اشتهر عنه وانتشر ، كما ذاع وانتشر أمر رجوعه عن الاعتزال ؛ إذ لم يبق أحدٌ ممن ترجم له إلا وذكر قصة صعوده المنبر وتبريه من الاعتزال ، فهل ذكر أحدٌ من المؤرخين شيئًا عن رجوع الإمام عن منهج عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب؟!

عند الرجوع إلى كتب التاريخ لا نجد أي إشارةٍ إلى هذا لا من قريب ولا من بعيد ، بل نجد المؤرخين كلَّهم مطبقين على أنَّ الإمام أبا الحسن بعد هجره للاعتزال والمعتزلة رجع إلى مذهب السلف الصالح ، وصنَّف على طريقتهم كتبه اللاحقة الإبانة وغيرها من الكتب التي صنَّفها في نصرة مذهب أهل الحق[1] .

ينضاف إلى ذلك ما ذكروه من أنَّ الرجوع الذي يزعمونه للإمام الأشعري لو ثبت عنه لحفلت به المصادر الموثوقة للمعرفة في ذلك مما ورد عن أصحابه وتلامذته فيما تركوه من منجزات ؛ لأنَّهم أصحابه المحيطون به ، والأعلمون بأقواله وآرائه واتجاهاته الفكرية والعقدية ، وبخاصة تلك المسائل التي تصل بالعقيدة .

كما ينضاف إلى ذلك أنَّ مثل هذه القضايا الشائكة ذات الحساسة العالية لتعلقها بالعقيدة لابُدَّ أن تتوافر الدواعي على نقلها على الرغم من أنَّ شدة التحفظ

---

(١) يُنظر : أهل السنة الأشاعرة ، ص ٤٣ ، ٤٤ .



والتصون والتحوط لدى المدارس العلمية في تراثنا الإسلامي تقول : إنَّ مما تتوافر الدواعي على نقله لكنَّه ينقل آحادًا لا يلتفت إليه ولا يعتمد عليه .

وإذا كان الأمر كذلك فما بالنا بما لم ينقله واحد من تلامذته الثقات ولا من أصحابه ، ودونك كتب أصحابه وأصحاب أصحابه من أمثال مؤلفات ابن فورك ، وأبي بكر القفال الشاشي ، وأبي إسحاق الشيرازي ، وأبي بكر البيهقي وغيرهم .

فليس أي إشارة أو ذكرٍ لتركه مذهب شيخه عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب إلى غيره .

وهل يعقل أنَّ إمامًا بقامة الإمام الأشعري يرجع عن مذهبٍ اعتنقه بعد إعلان على الملأ على منبر المعتزلة ـ هل يعقل أن يرجع عن هذا المذهب الذي اختاره بعد تحقيق وتدقيق ومراجعات ومحاسبات إلى مذهب آخر سرًّا دون أن يعلم عنه أحد من الناس ، ومن ثَمَّ تسقط الدعوى بأنَّ الرجل مرَّ بمراحل ثلاث ، والحق الذي لا مرية فيه أنَّهما مرحلتان اثنتان :

الأولى : مرحلة الاعتزال التي عاش عليها أربعين عامًا يدرس وينقب .

الثانية : عدوله عن الاعتزال إلى متابعة طريقة أهل السنة والجماعة التي سار فيها إمامًا ، وظل عليها يؤلف ويدرس ويحقق حتى لقى الله عليها .

ومن الإنصاف أن نقول : لعل الذي حدى بأصحاب القول بأنَّ المراحل ثلاث هو أنَّ الرجل قال بالتفويض ، وهو ما تلتقي فيه كلمة الأشاعرة مع كلمة السلف الصالح ، فسيطر عليهم وهم بأنَّ الرجل بذلك قد اعتنق السلفية المزعومة ، وعدل عن طريقة الأشاعرة أهل السنة والجماعة .

والادِّعاء بأنَّ مذهب الشيخ على الإثبات كما هو صريح قوله في (الإبانة) وأنَّها من أواخر ما ألف رضي الله عنه ، وأقول : « أول مشكلة معقدة غاية التعقيد تعرض لنا في هذه النقطة هي مشكلة نسبة الكتاب إلى الإمام الأشعري ، ولا شك أنَّ الاستهانة



بأمر نسبة الكتاب إلى صاحبه مضرٌّ غاية الضرر ؛ لأنَّه يدخل الخلط والفساد والاضطراب في تمييز كلامه بعضه عن بعض ، وفي الكشف عن خصائص بنيته الاعتقادية ونقل النصوص التي وقفت عليها في عدم نسبة هذا الكتاب إلى الإمام الأشعري يطول ويطول جدًّا ، فاختصرته اختصارًا غير مخلٍّ من كلام علمين كبيرين محققين لهذه القضية ، أولهما : الإمام العلامة محمد زاهد الكوثري ـ رحمه الله ـ حيث يقول في مقدمة كتابه (تبيين كذب المفتري) : «والنسخة المطبوعة في الهند من الإبانة نسخة مصحفة محرفة تلاعبت بها الأيدي الأثيمة فيجب إعادة طبعها من أصل موثوق» .

وقال أيضًا في مقدمته على كتاب (إشارات المرام من عبارات الإمام للعلامة البياضي) : «ومن العزيز جدًّا الظفر بأصل صحيح من مؤلفاته على كثرتها البالغة ، وطبع كتاب الإبانة لم يكن من أصل وثيق ، وفي المقالات المنشورة باسمه وقفة» .

وهذا أيضًا ما ذهب إليه الدكتور عبد الرحمن بدوي مؤيِّدًا للعلامة الكوثري قال : «وقد لاحظ الشيخ الكوثري بحق أنَّ النسخة المطبوعة في الهند تلاعبت بها الأيدي الأثيمة ، كما لا حظ ذلك غيرهم من الدارسين»[(1)] .

وقد نقل الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ في كتابه (تبيين كذب المفتري) فصلين من الإبانة ، وعند مقارنة الإبانة المطبوعة المتداولة مع طبعة الدكتورة فوقية مع الفصلين عند ابن عساكر يتبين بجلاء قدر ذلك التحريف الذي جرى على الكتاب ، وهاك بعض الأمثلة على ذلك :

جاء في الإبانة المطبوعة ص ١٦ ما نصه : «وأنكروا أن يكون له عينان مع قوله : ﴿ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا ﴾ (القمر:١٤) هكذا بالتثنية» .

وعند ابن عساكر ص ١٥٧ : «وأنكروا أن يكون له عين» بإفراد لفظ العين .

---

(١) مذاهب الإسلاميين ١/٥١٦ ، ٥١٧ .



وجاء في المطبوعة ص ١٨ : «وأنَّ له عينين بلا كيف» .

وفي طبعة الدكتورة فوقية ص ٢٢ : «وأنَّ له سبحانه عينين بلا كيف» . هكذا كلاهما بالتثنية ، وعند ابن عساكر ص ١٥٨ : «وأن له عينًا بلا كيف» بإفراد لفظ العين .

والذي لا مرية فيه أنَّ الإفراد هو الموافق للكتاب والسنة الصحيحة وأقوال سلفنا الصالح ، ولم يبق في أيدينا إذن إلا أن تكون الأيدي تلاعبت بنسخ الكتاب ؛ إذ لفظ العينين ـ هكذا بالتثنية ـ لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة ، ولا ريب أنَّ من ثنى فقد قاس الخالق العظيم على المحس المشاهد من الخلق ، تعالى الله عمَّا ينسبون إليه علواً كبيراً .

يقول العلامة الكوثري ـ رحمه الله ـ في تعليقه على كتاب الأسماء والصفات للبيهقي في هامش (٣١٣) : «لم ترد صيغة التثنية في الكتاب ولا في السنة ، وما يُروى عن أبي الحسن الأشعري من ذلك فمدسوسٌ في كتبه بالنظر إلى نقل الكافة عنه» .

ومن ذلك أيضًا ما جاء في الطبعة المتداولة عند ذكر الاستواء ص ٦٩ : «إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء؟ قيل له : نقول إنَّ الله ـ عز وجل ـ مستو على عرشه كما قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) .

وفي طبعة الدكتورة فوقية ص ١٠٥ : «إنَّ الله ـ عز وجل ـ استوى على عرشه استواءً يليق به من غير حلول ولا استقرار» .

وجملة (من غير حلول ولا استقرار) محذوفة من الطبعة المتداولة .

وفي ص ٧٣ من الإبانة المتداولة : «فكل ذلك يدل على أنَّه تعالى في السماء مستو على عرشه ، والسماء بإجماع الناس ليست الأرض ، فدل على أنَّ الله ـ تعالى ـ منفرد بوحدانيته مستو على عرشه» .



وفي طبعة الدكتورة فوقية ص ١١٨ : «فدل على أنَّ الله - تعالى - منفرد بوحدانيته مستو على عرشه استواءً منزهًا عن الحلول والاتحاد» .

وهذا كافٍ إن شاء الله ، وإذا لم يكن هذا الاضطراب والاختلاف ، فما الاضطراب والاختلاف إذن؟!

وبيقين لا يدخله ريب أنَّ من الظلم المبرح أن ينسب مثل هذا التخليط في صفات الله - عز وجل - إلى الإمام العظيم الإمام الأشعري ، والرجل الذي لا يؤمن جانبه على فهم كلام المعاصرين من السادة الأشاعرة كيف يؤمن جانبه على فهم كلام رجلٍ رحل إلى ربه وبليت عظامه من عشرات السنين! فقول المتسلفة وتلفيقهم في هذه القضية لا يعتد به ، وتفصيل القول في هذه الصفات سيأتيك نبؤه بعد حين .

أمَّا العلم الثاني ، وما أدراك ما العلم الثاني إنَّه العلاَّمة الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة حيث يقول في كتابه (الدخيل في التفسير) تحت عنوان (تحرير معنى الصفات الخبرية) : «والذي نقله الحافظ البيهقي من مذهب الشيخ الأشعري - رحمهما الله - أنَّه صفة فعل . قال في كتابه (الأسماء والصفات) : «وذهب أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري إلى أن الله - تعالى جل ثناؤه - فعل في العرش فعلا سماه استواء ، كما فعل في غيره فعلا سماه رزقا أو نعمة أو غيرهما من أفعاله ، ثم لم يكيف الاستواء إلا أنه جعله من صفات الفعل لقوله : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) وثم للتراخي ، والتراخي إنما يكون في الأفعال ، وأفعال الله - تعالى - توجد بلا مباشرة منه إياها ولا حركة»[1] .

وإنَّما الذي نقل عن الشيخ في الاستواء أنَّه صفة ذات هو شيء حكاه حكاية عن بعض أصحابه ، قال البيهقي : «وقد أشار أبو الحسن علي بن إسماعيل إلى

(١) الأسماء والصفات ، ص ٤١٠ .



هذه الطريقة حكاية ، فقال : وقال بعض أصحابنا : إنه صفة ذات ، ولا يقال : لم يزل مستويا على عرشه ، كما أن العلم بأن الأشياء قد حدثت من صفات الذات ، ولا يقال : لم يزل عالما بأن قد حدثت ، ولما حدثت بعد» .

وأقول : « وهذا الأخير هو ظاهر ما قدمنا لك من نقل صاحبي المواقف وشرحه من مذهب الشيخ ـ رحمه الله ـ كما لا يخفى» .

ثم علَّق شيخنا العلامة إبراهيم خليفة في الهامش قائلاً ـ رحمه الله ـ : «انظر كيف يستقيم مع هذا ما جاء فيما ذكر غير واحد أنَّه أحد تصانيف الشيخ تحت اسم الإبانة في أصول الديانة نقول : كيف يستقيم مع هذا ما جاء في هذا الكتاب من الغثاثة ، وشدة إيهام الباطل حتى إنَّ من يُطالع مثل ذلك الكلام غير عارف بقدر الشيخ وما بذلت مدرسته من الجهد العظيم في تنزيه ساحته تعالى عن التجسيم أبلغ التنزيه ، وإنَّ أحدًا من فحول هذه المدرسة وثقاتها الذين هم أعرف برأي الشيخ ، وأخبر بكل شاردة وواردة من قوله لم ينسب إليه شيئًا من هذه القاذورات أصلاً إنَّما غاية ما نسبوا إليه ما سيأتيك من الحق ، وما وقفت عليه الآن من كون هذه الحروف صفات سمعية لا تعلم معانيها .

نقول : من يُطالع هذا الكلام غير عارف بذلك كله ، لا يشك في صدور مثله من قلم ضالع مع المشبهة في تشبيههم وجمودهم على ظاهر اللفظ ، ناصر مذهبهم بنفس ما نصروه هم به من الشبهة ، فأمَّا إن رمت النموذج لما نقول به فيما كتب في هذا الكتاب عن الاستواء قال : « إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء؟ قيل له : نقول : إنَّ الله ـ عز وجل ـ مستوٍ على عرشه ، كما قال : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) ، وقد قال عز وجل : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ (فاطر:١٠) ، وقال عز وجل : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ ﴾ (النساء:١٥٨) ، وقال عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ

إِلَيْهِ ﴾ (السجدة:٥) ، وقال تعالى حاكيا عن فرعون : ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ (غافر:٣٦-٣٧) ، فكذب فرعون نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ في قوله : إن الله ـ سبحانه ـ فوق السماوات .

وقال عز وجل : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ (الملك:١٦) ، فالسماوات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السماوات قال : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ لأنّه مستو على العرش الذي فوق السماوات ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السماوات ، وليس إذ قال : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني جميع السماوات ، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات ، ألا ترى أنَّ الله ـ عز وجل ـ ذكر السماوات ، فقال : ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ (نوح:١٦) ، ولم يرد أنَّ القمر يملأهنَّ جميعًا ، وأنَّه فيهنَّ جميعًا ، ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء ؛ لأن الله ـ عز وجل ـ مستو على العرش الذي هو فوق السماوات ، فلولا أنَّ الله ـ عز وجل ـ على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش ، كما لا يحطّونها إذا دعوا إلى الأرض» .اهـ .

فهل يشك ذو نصفة ومعرفة بمنزلة الشيخ ومدرسته في العقلاء في أنَّ هذا والذي آثروه عن الشيخ من رعاية التنزيه لا يمكن أن يخرج من مشكاة واحدة ، وأنَّ هذا الكتاب إذًا ليس مما سطر قلم الشيخ أصلاً ، وأنَّ أصابع الدس والتحريف إذًا لأبُدَّ قد عبثت به ما عبثت ، اللهم إلا أن يستكره مثل هذا الكلام على التأويلات البعيدة ، بل الموغلة في البعد والتي لا حاجة بنا إلى مثلها هنا لما عرفت من رواية الثقات عنه خلاف هذا الكلام ، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات» . اهـ[1] . والله أعلم .

* * *

(١) الدخيل في التفسير ، ص ١٦١-١٦٤ .



أصول الإمام الأشعري في تقرير مسائل الاعتقاد

• **الأصل الأول مصدر التلقي** : لأبدَّ أن تُحدَّد في بيان أصول الإمام الأشعري ومن تبعه ـ أهل السنة والجماعة ـ هي **مصدر التلقي** :

من المسلمات أنَّ قاعدة طرق المعرفة تتمثل في ثلاثة روافد ، كلُّ رافدٍ منها يصبُّ في وعي الإنسان من جانبٍ ، ومن خلال عطاء هذه الروافد الثلاثة يتشكل وعي الإنسان تجاه أي أمرٍ .

الرافد الأول : عطاء الحواس الخمس (السمع والبصر والذوق واللمس والشم) ، فالمدركات من خلال هذه القنوات هي المحسَّات ، والعلوم الناشئة عن طريقها ـ ما دامت سليمةً ـ علوم يقينية لا يصح التشكيك فيها .

الرافد الثاني : الخبر الصادق ، وهو عند أهل السنة والجماعة عطاء الوحي كتابًا وسنةً ، ونعني بالسنة خطاب التواتر ، وخبر الرسول المؤيد بالمعجزة ، والخبر المحتف بالقرائن .

أمَّا الرافد الثالث فهو العقل : ونعني به هنا ما يدركه الوعي من ثمرات إعمال العقل التي يقررها العقلاء ، وتلتقي عليها كلمتهم ، وقد غذى القرآن العقل والحس ، غذى العقل بنحو قوله : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ (الطور:٣٥) ، والحس بنحو قوله : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات:٢١) ، وقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (الطارق:٥) .

ولا يرد على هذا ما يزعمه البعض من أنَّ العقول تتفاوت ، وأنَّ الإدراك بالعقل نسبي لأنَّنا لا نعني بالعقل ما يدركه أي فرد بل ما تدركه عقول العلماء ، ويرتضيه العقلاء حين ينظرون فيه ، فكأنَّه ثمرات العقل الجمعي لأولي النهى من العلماء .

ويروقنا - في هذا المقام - ما أشرق من أُفق العلامة النُّظّار شيخنا فضيلة الأستاذ الدكتور حسن الشافعي رئيس مجمع الخالدين بالقاهرة - سابقا - حين قال تعقيبًا على ذلك : « هذه قاعدةٌ إجماعيةٌ تلتقي عليها مدارس النظر الإسلامي في ميدان العقيدة (المتكلمون) » . اهـ[1] .

وفي (مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري) يُعبِّر شيخ الأشاعرة - أهل السنة والجماعة - عن هذه الأسباب - أيضًا - فيقول : « الإدراك الحسي لوجود الشيء وصفاته : الخبر ، فإن كان متواترًا أفاد اليقين أو آحادًا فالتجويز معلقٌ به دون القطع واليقين ، والعقل بالدليل ، كإدراك صفات الحياة والعلم والقدرة والإرادة » . اهـ[2] .

• الأصل الثاني : إيمانه بأنَّ الإسلام هو دين النقل المؤيَّد بالعقل

يرى الأشعري ومعه أهل السنة والجماعة أنَّ الأدلة النقلية هي في ذاتها عقلية كذلك ، فالقرآن ليس مسائل اعتقادية فقط ، ولا دلائل على المسائل فحسب ، بل هو جماعهما معًا ، فالقرآن الكريم يحتوي على الإرشاد والدليل على ما إليه الإرشاد ، فنصوصه كأنَّـما هي أدلة شرعية عقلية ، ودونك مثلاً :

ما تراه من برهان التمانع في قوله تعالى:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء:٢٢) .

ومنه ما تراه من برهان بطلان الدور والرجحان بدون مرجح في قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ (الطور:٣٥-٣٦) ، فالجملة الأولى ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾

(١) مقدمة تأسيسية لعلم القواعد الاعتقادية ، ص ١١٤ .

(٢) مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري لابن فورك ، ص ٤٠ .



تحكم باستحالة وجود مسبب بدون سبب ، والجملة الثانية ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ تحكم باستحالة أن يخلق نفسه .

ومنه ما تراه من برهان القياس بجامع العلة المشتركة في قوله تعالى وهو يردُّ على منكر الحشر : ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ (الأنبياء:١٠٤) ، وقوله تعالى وهو يردُّ على وهم مَنْ وهم عن المسيح - عليه السلام - : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩).

ومنه ما تراه من مظهر المحاكمة الفكرية في طريق البحث عن الخالق - جلَّ شأنه - وذلك في حديث القرآن عن سيدنا إبراهيم بدءًا من قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

(الأنعام:٧٥-٧٩) .

وإذا كان هذا موقفهم من القرآن الكريم فإنَّهم مع الخبر الصادق ينسجون على المنوال نفسه ، فالعقل الموضوعي يحكم بأنَّ العقل الصحيح - أي السليم - يتوافق مع النقل الصريح ، فالمعقولات الصحيحة تتسق مع المنقولات الصريحة ، ولعلهم في ذلك يركنون إلى أنَّ واهب العقل الصحيح هو واهب النقل الصريح ، فالمسلك العملي لأهل السنة والجماعة يتمثل في أنَّهم - وإن قرَّروا أنَّ الأدلة الكلامية تقوم على العقل استنادًا ، وعلى الشرع اعتدادًا - يلجأون إلى آي القرآن ،

ويعرضونها عرضًا عقليًّا بحكم مضمونها ـ حسب فهمهم ـ في إثبات الوجود الإلهي، وفي الوحدانية، وإعجاز القرآن فضلاً عن مسائل الآخرة بطبيعة الحال[1].

وبإزاء من يزعمون أنَّ أهل السنة والجماعة يقولون بتقديم العقل على النقل نقول: إنَّ حقيقة موقفهم أنَّهم يُعملون العقل في إثبات أصل الإيمان وصدق المخبر عن الله، وهم إذ يحققون ذلك يستلهمون النقل مضامينه وكنوزه، فهم يستعملون العقل في ما لو اتكأوا فيه على النقل لآل بهم الأمر إلى الدور المحال أو إلى إبطال العقل والنقل معًا.

على أنَّ أهل السنة ليسوا بدعًا في القول بتقديم العقل عند تعارضه مع النقل الصحيح، فذلك من مقررات العقول عامةً.

ولعلَّ في موقف المحدثين الذين هم أبعد الناس عن تقديم العقل على النقل ما يدعم رؤيتنا هذه بقوةٍ، فمن أصولهم ـ كما قال الخطيب البغدادي: «(باب القول فيما يرد به خبر الواحد) . . . . . . إذا روى الثقة المأمون خبرًا متصل الإسناد رُدَّ بأمورٍ: أحدها: أن يخالف موجبات العقول فيُعلم بطلانه، لأنَّ الشرع إنَّما يَرِدُ بمجوِّزات العقول، وأمَّا بخلاف العقول، فلا». اهـ[2].

• الأصل الثالث: جمعه بين العقل والنقل

ممَّا يرجع إلى منهج الأشعري وأصوله (جمعه بين العقل والنقل) وبيان ذلك في نقاط:

الأولى: دور العقل أمام مصدري القرآن والسنة، يتمثل في الكشف عن أنَّه كلام الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وذلك من جهة أنَّ صحة النقل متوقفة على

(١) يُنظر: شرح العقائد النسفية للتفتازاني، ص ٥٥ وما بعدها.

(٢) الفقيه والمتفقه ١/١٣٢.



صدق المُخبِر ، وصدقه متوقفٌ على ثبوت نبوته المتوقفة بدورها على المعجزة ، المتوقفة على العقل لا النقل ، وإلا لتوقف النقل على النقل ، وهو دورٌ فاسدٌ .

الثانية : ثم يتمثل دور العقل في إدراك مضامين النص وتجلية الغوامض منه ، وإزاحة غواشي اللبس عنه ، كما يتمثل في دعم كلِّ ما قرره بيان الله أو سنة رسوله ﷺ بالبراهين العقلية .

الثالثة : إذا وصل العقل إلى حده الذي لا يتأتَّى له تجاوزه ، ولا يتمكن فيما وراءه ، كان لا بُدَّ بحكمٍ من العقل ذاته أن يستسلم للخبر الصادق ، الذي من شأن العقل أن يثق به .

الرابعة : الخبر الصادق الذي من شأن العقل أن يثق به ، هو الوحي الإلهي ، فإذا تلقى العقل أنباء الوحي الإلهي تكشف له ما تنطوي عليه من عيوب الماضي والمستقبل ، وأصبح دور العقل ، والحالة هذه العمل على إدراك ما تضمنه الوحي عن طريق ضوابط اللغة وأصول الشرع .

الخامسة : الإجماع معقودٌ على أنَّ صحيح المنقول متفقٌ دائمًا مع صريح المعقول .

وهذه العلاقة بين العقل والنقل ـ علاقة التكامل والتآخي ، ومن ثمَّ فمن جرؤ على إهدار العقل وإغفاله بالكلية سقط معه الكلام وتردى بداهةً في الدور الفاسد ، ومن تجاسر على إهمال النصِّ وإطراحه بالكلية ، فإنَّه يوشك أن يخلع ربقة الإسلام ، ولَمَا كان مؤمنًا بسيد الأنام سيدنا محمد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وما أُنزل عليه من ربِّه .

هذا ، ولن تجد في قلب الحقائق أوغل في المكابرة والمخاصمة للمنهج العلمي ومنطق العقل من ذلك الذي يُنادي بأنَّ الأشاعرة يقولون بالمنافاة بين العقل والنقل ، وأنَّهم يقدمون العقل على النقل ، سبحانك . هذا بهتانٌ عظيمٌ .



● الأصل الرابع : رؤيته في ثبوت العقائد

ومن أصول الأشعري وأهل السنة المنهجية ـ كذلك ـ أنَّ ثبوت العقائد ، إنَّما يقوم على قواطع الأدلة ، ومن ثَمَّ لا يقطعون فيما لا قطع فيه .

وبيان ذلك أنَّ قيام العقيدة على قواطع الأدلة حقيقة علمية قبل كلِّ شيءٍ ، دلت عليها أوليات الأدلة العقلية التي لا يمكن أن يقع فيها خلفٌ .

من تلك الأدلة :

١- ما أجمع عليه العقلاء كافة من أنَّ المقدمات الظنيـة إنَّما تـولـد أمـرًا ظنيًّا ، أمَّا الحقيقة العلمية القطعية فلا تتأتى إلا من مقدمات وأدلةٍ قطعية .

٢- العقيدة الحقة لا تتصور إلا بانعقاد القلب عليهما انعقادًا جازمًا مطابقًا للواقع حسبما يفهم من عنوانهما اللغوي ذاته ، فضلاً عن معناه العرفي المتفق عليه من قِبَل الجميع .

مكانة خبر الآحاد في العقيدة :

وبناءً على هذا ، نقول : إنَّ الدليل الظني كأخبار الآحاد ، لا يمكن أن يكون وحده سندًا لمبدأ من المبادئ الاعتقادية التي كلفنا الله الجزم بها ، وذلك من قِبَلِ أنَّ خبر الواحد محتمل لا محالة احتمالاً ينافي الجزم ، وينافي اليقين ، وقد يكون مضمونه مطابقًا للواقع بالفعل ، وقد لا يكون كذلك ، فكيف يتأتَّى بمثله أيا كانت تلك العقيدة ، حتى لو لم تكنٍ من عقائد الدين أصلاً ، بأن كانت من الحقائق العلمية أو الكونية ، أو غيرها مما ليس له مدخل فيما يجب على المرء اعتقاده .

بقي أن ننظر في قول بعض المتمجهدين : إنَّ كلاًّ من العقيدة الجازمة والأحكام الفرعية الاجتهادية يصح أن يقوم على الدليل الظني كأخبار الآحاد .

وشبهته فـي هـذا أنَّ الـواحـد مـن رسـل رسول الله ﷺ كان يبلغ الناس عن رسول الله ﷺ مسائل العقيدة كما يبلغهم الأحكام الفرعية .

والجواب - كما ذكره الإمام الغزالي وغيره - أنَّ هؤلاء الرسل لم يكونوا ليبلغوا الناس شيئًا من أمور العقيدة عن رسول الله ﷺ حتى يتصور الناس صدق الرسول فيما أخبر وبلغ ، وإلا فما الذي يحملهم على تصديقه ، وهم لم يصدقوا رسالة الرسول بعد!

ثم يقول الغزالي : «... وأمَّا أصل الرسالة والإيمان وأعلام النبوة فلا ، إذ كيف يقول رسول الله ﷺ قد أوجبت عليكم تصديقي وهم لم يعرفوا برسالته؟ أمَّا بعد التصديق به فيمكن الإصغاء إلى رسله بإيجابه الإصغاء إليهم» .

هذا من ناحية ، ومن ناحيةٍ أُخرى ، فإنَّ من يؤمن بالله بناءً على خبر آحاد مظنون وصل إليه ، لا يقيم إيمانه في الحقيقة على دليل ذلك الخبر وحده ، بل هو يقيم إيمانه على مجموعة أدلة عقلية بدهية تورثه القطع واليقين ، ولم يكن الخبر الذي جاءه إلا منبِّهًا له إلى هذه الأدلة ، كما ذكر ذلك العلامة الإيجي في المواقف وغيره ، ومحالٌ أن يقيم العاقل من قلبه عقيدةً جازمةً على مجرد خبرٍ ظنيٍّ عن أمرٍ لم يلمسه ولم يشاهده ، ولم يُنبَّه إلى أي دليلٍ يقينيٍّ عليه[1] .

إذًا فقد ثبت في منهجية أهل السنة والجماعة أنَّ المبادئ الاعتقادية التي كلفنا الله الجزم بها لا يمكن أن تقوم على أدلةٍ ظنيةٍ كمجرد خبر الآحاد ، بل لابدَّ لها من الاعتماد على مقدمات يقينية كالخبر المتواتر والأدلة العقلية .

وللعلامة التفتازاني في شرح المقاصد في قيمة أخبار الآحاد في مسائل الاعتقاد ما يفيد تحرير المسألة إذ يقول في بحث عصمة الملائكة : «وما يُقال إنَّه لا عبرة بالظنيات في باب الاعتقاد فإنْ أُريد أنَّـه لا يحصل منه الاعتقاد الجازم ، ولا يصح الحكم القطعي به فلا نزاع فيه ، وإنْ أُريد أنَّـه لا يحصل الظن بذلك الحكم فظاهر البطلان» . اهـ[2] .

(١) يُنظر : اللامذهبية لشيخنا العلامة الرباني البوطي ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) شرح المقاصد ٢/١٤٦ .

وهنا نجد من واجبنا أن ننبِّه إلى :

١- ما يتصل بذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته ممَّا يطلق عليه الإلهيات .

٢- ما يتصل بالمرسلين وكتبهم ومعجزاتهم ، وما يجب لهم ، وما يجوز في حقهم ، وما يستحيل عليهم ممَّا يُسمَّى في علم العقيدة بالنبوات .

٣- ما يتصل باليوم الآخر وما فيه من حشرٍ ونشرٍ وثوابٍ وعقابٍ وجنةٍ ونارٍ وصراطٍ وميزانٍ وما إلى ذلك ، وكذلك ما يتصل بالجنِّ والشياطين والملائكة وغير ذلك من الأمور السمعية .

كلُّ أولئك قد جاء الحديث عنه مفصَّلاً في آيات القرآن الكريم ، وهي قطعية الورود قطعية الدلالة ، وما جاء من أحاديث الرسول ﷺ في هذه الأمور فهو مؤيِّدات القرآن الكريم وموضِّحات مجمله .

أمَّا ما لم يرد بشأنه نصٌّ صريحٌ في القرآن فقد تكفَّلتْ بإثباته السنة النبوية التي بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، ومن ثَمَّ فهي تفيد القطع قطعًا .

وصفوة القول أنَّ أهل السنة والجماعة ـ الأشاعرة والماتريدية ـ لا تجد لهم أصلاً اعتمدوه مخالفًا لقاطعٍ من الشرع أو العقل ، ولم يقطعوا بشيءٍ لم يقطع به الشرع أو العقل .

• الأصل الخامس : عطاء الاستدلال بالخطاب

يدور حديثنا هنا حول ما يمكن أن يكون الإجابة على سؤالٍ جوهره : هل الاستدلال بالخطاب يفيد القطع أو لا ؟

أو سؤال جوهره : ما مرئيات العلماء فيما يفيده الاستدلال بالخطاب ؟

من طليعة من أدلوا بدلائهم في هذه المساءلة من علماء الأصول والكلام الإمام الفخر الرازي في كتابه (المحصول) إذ حكى عن بعض سابقيه إنكار إفادة خطاب



الدليل القطع ، وبنوا قولهم هذا على أنَّ خطاب الدليل مبني على مقدمات ظنية ، والمبني على المقدمات الظنية ظني ، فالاستدلال بالخطاب لا يفيد إلا الظن ، قالوا: إنَّه مبني على مقدمات ظنية لأنَّه مبني على نقل اللغات ، ونقل النحو ، والتصريف ، وعدم الاشتراك ، والمجاز ، والنقل ، والإضمار ، والتخصيص ، والتقديم ، والتأخير ، والناسخ ، والمعارض العقلي ، وكلُّ ذلك أمور ظنية .

ومضى الرازي يُمحِّصُ المسألة ويفتق فروعها بدقة ومنطقية ، بيد أنَّا في نهاية المطاف وجدناه يقول : « واعلم أنَّ الإنصاف أنَّه لا سبيل إلى استفادة اليقين من هذه الدلائل اللفظية إلا إذا اقترنت بها قرائن تفيد اليقين سواء كانت تلك القرائن مشاهدة أو كانت منقولة إلينا بالتواتر » . اهـ[1] .

فمقتضى كلام الإمام إمكانية إفادة خطاب الدليل القطع واليقين إذا اقترنت بخطاب الدليل ضمائم أُخرى مثل ضميمة المشاهدة أو ضميمة النقل المتواتر ، فما يفيد اليقين كمثل الإخبار بعرس زيد فهو محتمل ؛ إذ هو ممكن الوقوع وعدم الوقوع ، فإذا انضاف إلى الخبر المحتمل أن سمعنا طبولاً وزغاريد النساء تصدر من بيت زيد كانت تلك قرينة تضفي على الخبر معاني اليقين ، وكذلك إذا كان الخبر عن جماعةٍ يُحيل العقل تواطأهم على الكذب ، وكان مستند انتهائهم الحس فإنَّه يفيد القطع واليقين أيضًا ، وكذلك إذا انضاف إلى الخبر مشاهدة باطنة أو ظاهرة كأن رأينا جلوس زيدٍ في حلة العرس مع عروسه على منصة العروسين كانت المشاهدة بنوعيها ضميمة يقينية تضفي على الخبر دلالة اليقين .

وحين عرضنا كلام الإمام الرازي على العلماء الثقات وجدنا العلامة القرافي يفتق أكمام كلام الرازي ليكون سهل الهضم يسير الاستيعاب ، يقول شارحًا رأي الإمام الرازي واختياره : « تقريره : أنَّ الوضع بما هو وضع تتطرق إليه هذه

---

(١) المحصول ، ص ٣٩٠-٤٠٨ .



الاحتمالات ، ومع القرائن يقطع بأنَّ المراد ظاهر اللفظ ، ثم القرائن تكون بتكرر تلك الألفاظ إلي حد يقبل القطع ، أو سياق الكلام ، أو بحال المخبر الذي هو رسول الله ﷺ ، والقرائن لا تفي بها العبارات ، ولا تنحصر تحت ضابط ، ولذلك قطعنا بقواعد الشرائع ، وقواعد الوعد والوعيد ، وغيرها بقرائن الأحوال والمقال ، وهو كثير في الكتاب والسنة» . اهـ[1] .

أمَّا المحقق البياضي فهو يُوافينا برؤية الإمام الرازي بشيءٍ من البيان فيقول : «إنَّ الدليل النقلي يفيد الاعتقاد واليقين في المعتقدات عند التوارد على معنى واحد بالعبارات والطرق المتعددة والقرائن المنضمات . . . . واختاره متقدمو الأشاعرة ، وقال صاحب الأبكار والمقاصد هو الحق . . . . وبيَّنه في التلويح والمقاصد بأنَّ من الأوضاع ما هو معلومٌ بطريق التواتر ، كلفظ السماء والأرض ، وأكثر قواعد الصرف والنحو مما هو موضوع لهيئات المفردات وهيئات التراكيب ، والعلم بالإرادة يحصل بمعونة القرائن بحيث لا يبقى شبهة كما في النصوص الواردة في إيجاب الصلاة والزكاة ، وفي البعث إذا اكتفى فيه بمجرد السمع كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس:٧٩) ، ونفي المعارض العقلي حاصلٌ عند العلم بالوضع والإرادة وصدق المخبر ، وذلك لأنَّ العلم بتحقق أحد المتنافيين يفيد العلم بانتفاء الآخر ، على أنَّ الحق أنَّ إفادة اليقين إنَّما تتوقف على انتفاء المعارض وعدم ثبوته لا على العلم بانتفائه ؛ إذ كثيراً ما يحصل اليقين من الدلائل ، ولا يخطر المعارض بالبال إثباتًا أو نفيًا فضلاً عن العلم بذلك» . اهـ[2] .

وبعد ، فهل من عاقلٍ في الناس بعد هذا الذي استبان لك مَنْ يقول بأنَّ الأشاعرة يقولون : إنَّ نصوص الكتاب والسنة ظنية الدلالة ولا تفيد اليقين إلا إذا

---

(١) نفائس الأصول ٥١/٢ .

(٢) إشارات المرام ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

سلمت من الاحتمالات العشرة ، ولكنَّ هذا الدخان لا يستر العبث حتى ولو كان من النوع الذي يسيل الدموع ، وحقيقة ما يُدَّعى تتبدَّى أمام ما نقلناه عن الأئمة الراسخين .

وأختم لك - أيها القارئ الكريم - هذه النقطة بكلامٍ للعلامة الكوثري - رضي الله عنه - يحسن السكوت عليه ، قال في كتابه (نظرةٌ عابرة) تحت عنوان (العقيدة الدينية وطريق ثبوتها) : «أمَّا الدليل اللفظي فيفيد اليقين عند توارد الأدلة على معنى واحدٍ بطرقٍ متعددة وقرائن منضمة عند الماتريدية ، كما في (إشارات المرام للبياضي وغيره) ، وإلى هذا ذهب الآمدي في (الأبكار) ، والسعد في (شرح المقاصد والتلويح) ، والسيد في (شرح المواق) ، وعليه جرى المتقدمون من أئمة هذه الأمة وجماهير أهل العلم من كلِّ مذهبٍ ، بل الأشعري يقول : إنَّ معرفة الله لا تكون إلا بالدليل السمعي[1] ، ومن يقول هذا يكون بعيدًا عن القول بأنَّ الدليل السمعي لا يفيد إلا الظنَّ ، فيكون من عزا المسألة إلى الأشعرية مطلقًا متساهلاً بل غالطًا غلط غير مستساغ ، والواقع أنَّ القول بأنَّ الدليل اللفظي لا يفيد اليقين إلا عند تيقن أمور عشرة - ودون ذلك خرط القداد - تقعرٌ من بعض المبتدعة ، وقد تابعه بعض المتفلسفين من أهل الأصول ، وجرى وراءه بعض المقلدة من المتأخرين ، وليس لهذا القول أي صلةٍ بأي إمام من أئمة أهل الحق ، وحاشهم أن يضعوا أصلاً يُهدم به الدين ، ويتخذ معولاً بأيدي المشككين ، والدليل اللفظي القطعي الثبوت يكون قطعي الدلالة في مواضع مشروحة في أصول الفقه .

وأمَّا ما أجمله الفخر الرازي في المحصل فقد أوضحه (في المحصول ، ونهاية العقول) ، واعترف فيهما بأنَّ القرائن قد تُعين المقصود ، فيفيد الدليل اللفظي

(١) لعلَّ المقصود أنَّ الباب الأول في إثبات وجود الله هو العقل ، أمَّا معرفة صفاته وسائر أحكام الأُلوهية فبالدليل السمعي .

اليقين ، فيفلت بذلك من أيدي المشككين إمكان التمسك بقول الرازي في (المحصول) في باب التشكيك في القرآن الحكيم ، بل القول بمجرد الدليل العقلي في علم الشريعة بدعةٌ وضلالةٌ ، بل الأصل في علم التوحيد والصفات هو التمسك بالكتاب والسنة ومجانبة الهوى والبدعة ولزوم طريق السنة والجماعة في المباحثة مع الذين أقروا برسالة النبي ﷺ وإنَّما يُستعمل الدليل العقلي وحده مع غيرهم ، كما يقوله فخر الإسلام وغيره ، فلا يُعوَّل عند أهل الحقِّ على اعتقادٍ لا يُقرّه الكتاب والسنة ، فمن سعى في إبعادهما عنه فقد أبعد في الضلال» .اهـ[1] .

• الأصل السادس : موقف الأشعري وأهل السنة والجماعة من الاتجاه المعاكس للنصوص القطعية

بيَّنَّا فيما سبق أنَّ العقائد لا تثبت إلا بالقواطع من الأدلة ، ومن ثَمَّ فإنَّنا في هذه النقطة نبيِّن منهج أهل السنة والجماعة فيمن تأوَّل النصوص القطعية تأويلاً باطنيًّا يُخرجها عن دلالتها الظاهرة المتبادرة إلى معانٍ تُناقض أصول الشريعة ، وفيمنْ ردَّ هذه النصوص القطعية إنكارًا وجحودًا لها ، وفي بيان ذلك يقول العلاَّمة التفتازاني شارحًا قول الإمام نجم الدين عمر النسفي : «(والنصوص) من الكتاب والسنة تُحمل (على ظواهرها) ما لم يصرف عنها دليل قطعي ، كما في الآيات التي تُشعر ظواهرها بالجهة والجسمية ونحو ذلك . . . . . (والعدول عنها) أي عن هذه الظواهر (إلى معانٍ يدَّعيها أهل الباطن) وهم الملاحدة ، وسُمُّوا الباطنية لادِّعائهم أنَّ النصوص لَيست على ظواهرها بل لها معانٍ باطنة لا يعرفها إلا المعلم ، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية (إلحادٌ) أي ميلٌ وعدولٌ عن الإسلام واتصالٌ واتصافٌ بكفرٍ لكونه تكذيبًا بالنبي - عليه السلام - فيما عُلم مجيئه به بالضرورة ، وأمَّا ما يذهب إليه بعض المحققين من أنَّ النصوص محمولةٌ على

(١) نظرة عابرة ، ص ١٨ ، ١٩ .



ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، وهو من كمال الإيمان ومحض العرفان.

(وردُّ النصوص) بأن ينكر الأحكام التي دلَّت عليها النصوص القطعية من الكتاب والسنة كحشر الأجساد مثلاً (كفرٌ) لكونه تكذيبًا صريحًا لله ـ تعالى ـ ورسوله ـ عليه السلام ـ فمن قذف عائشة بالزنى كفر .

(واستحلال المعصية) صغيرةً كانت أو كبيرةً (كفرٌ) إذا ثبت كونها معصية بدليل قطعي ، (والاستهانة بها كفرٌ ، والاستهزاء على الشريعة كفرٌ) ؛ لأنَّ ذلك من أمارات التكذيب ، وعلى هذه الأصول يتفرع ما ذكر في الفتاوى من أنَّه إذا اعتقد الحرام حلالاً ، فإن كانت حرمته لعينه ، وقد ثبت بدليل قطعي يكفر ، وإلا فلا بأن تكون حرمته لغيره أو ثبت بدليل ظني ، وبعضهم لم يفرق بين الحرام لعينه ولغيره ، فقال : مَنْ استحلَّ حرامًا قد علم في دين النبي ـ عليه السلام ـ تحريمه كنكاح ذوي المحارم ، أو شرب الخمر ، أو أكل ميتة ، أو دم ، أو لحم خنزير ، من غير ضرورة فكافرٌ ، وفعل هذه الأشياء بدون الاستحلال فسقٌ ، ومَنْ استحلَّ شرب النبيذ إلى أن يسكر كفرٌ ، أمَّا لو قال لحرامٍ هذ حلال لترويج السلعة أو بحكم الجهل لا يكفر ، ولو تمنى أن لو يكون الخمر حرامًا ، أو لا يكون صوم رمضان فرضًا لِمَا يشقُّ عليه ، لا يكفر ، بخلاف ما إذا تمنَّى أن لا يُحرَّم الزنى وقتل النفس بغير حقٍّ ، فإنَّه يكفر ؛ لأنَّ حرمة هذه الأشياء ثابتة في جميع الأديان ، موافقة للحكمة ، ومَنْ أراد الخروج عن الحكمة فقد أراد أن يحكم الله بما ليس بحكمة ، وهذا جهلٌ منه بربِّه . . . . ومَنْ وصف الله بما لا يليق أو سخر باسمٍ من أسمائه أو بأمرٍ من أوامره ، أو أنكر وعده ووعيده يكفر ، وكذا لو تمنَّى أن لا يكون نبيٌّ من الأنبياء على قصد الاستخفاف أو عداوة ، وكذا لو ضحك على وجه الرضا لمن تكلم بالكفر» . اهـ[1] .

---

(١) شرح العقائد النسفية ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

ونزيد الكلام إيضاحًا فنقول :

ما يستوجب الكفر لا يخرج عن ثلاثة أمورٍ : (أقوالٌ ، وأفعالٌ ، وسخريةٌ وتحقيرٌ).

فأمَّا الأقوال : فيرى أهل السنة والجماعة أنَّ مَنْ أنكر معلومًا من الدين بالضرورة أي يعلمه الكافة بالبداهة ، كمَنْ أنكر ركنًا من أركان الإيمان ، أو شعيرةً من شعائر الإسلام الخمسة ، أو كذَّب نبيًّا من الأنبياء ، أو استحلَّ محرمًا قاطعًا كالزنا ، أو أنكر قواطع الأحكام المشهورة والصريحة في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد كفر ، إذ في ذلك تكذيبٌ لله ورسوله .

وينبغي أن نسارع هنا بغربلة الكلام حتى ننفي الخبث فنقول : المتكلم بلفظٍ إمَّا أن يكون كلامه صريحًا في الكفر لا يقبل التأويل ، وهذا يكفر قائله صراحةً ، اللهم إلا إذا ادَّعى أنَّه لا يعرف أنَّه يدلُّ دلالة صريحة على الكفر ، وأنَّه لا يقصد هذه الدلالة فهذا يُسأل عن مراده ويُحكم عليه بعدم الكفر ويُعلَّم ، وذلك كمن يقول : ليس العالم إلا الله أو عبارات القائلين بوحدة الوجود ، فهذا يُناقش في مراده من قوله ، فإن كان يقصد المعنى اللغوي الظاهر ، وهو أنَّ العالم هو الله كفر ، أمَّا إن كان يقصد بقوله أنَّ الله هو مدبر كل شيءٍ فإنَّه لا يكفر .

أمَّا المتكلم بلفظٍ ظاهرٍ يحتمل معنيين فأكثر ، أحد هذه المعاني متبادر في الدلالة على الكفر ، والمعاني الأُخرى غير متبادرة الدلالة عليه فلا نحكم بكفره .

وأمَّا الأفعال فهي كلُّ ما كان يحمل دلالةً قاطعةً على شيءٍ يتناقض مع ركنٍ من أركان الإيمان أو الإسلام كالسجود لصنمٍ ، فإنَّ لهذا الفعل دلالةً واضحةً لا تقل عن دلالة النطق ، ولها مدلولٌ يُناقض الإذعان لأركان الإيمان والإسلام ، والإذعان لكلِّ ما هو ثابتٌ ومعروفٌ من الدين بالضرورة[1] .

---

(1) يُنظر : كبرى اليقينيات ، ص ٣٦٧ بتصرفٍ .



وأمَّا ما يدخل في نطاق السخرية والتحقير فهو داخلٌ في الحقيقة في زمرة الأقوال أو الأفعال ، لكنَّ العلماء أفردوه بنوعٍ ثالثٍ لعدم توفر الجدِّ الذي من شأنه أن يتوافر في النوعين السابقين فاقتضى أن يُفرد ببيان حكمه وآثاره .

وضابط السخرية أو التحقير المستوجبين للردة أو للكفر أن يسخر من شيءٍ من أركان الإسلام أو الإيمان ، أو من الأحكام القاطعة المعلومة بالبداهة والضرورة ، كأن يسخر من الصلاة أو الحج ، أو يحتقر القرآن تحقيراً واضحًا بقولٍ أو فعلٍ ، أو يحتقر شيئًا من الشعائر الإسلامية البارزة .

تعقيبٌ :

لا ينبغي التسرع في التكفير على مَنْ نطق بكلامٍ غير صريحٍ في الكفر حتى ولو كان ظاهراً في الدلالة على المعنى الكفري إلا بعد سؤال قائله لاكتناه حقيقة مراده ، وكذلك لا يُتسرع في التكفير في المتكلم بما يدل دلالة صريحة على الكفر إلا إذا عرفنا من القائل أنَّه لا يعرف أنَّ قوله يدل دلالة صريحة على الكفر ، وأنَّه يريده .

والذي تطمئنُّ إليه النفس هو أنَّ مَنْ قال ما يدل على الكفر من وجهٍ ، وما يدل على الإسلام من وجهٍ حكمنا بإسلامه إلا إذا قرَّر قائل ذلك أنَّه يريد المعنى الكفري .

• الأصل السابع : التشبث بالمعاني الظاهرية لبعض النصوص مزلقةٌ من مزالق الكفر

من أوليات معتقد أهل السنة والجماعة في هذا الشأن أنَّ الاستبداد بالمعاني الظاهرة لبعض النصوص من غير عرضها على ميزان العقل وقواطع الشرع كفرٌ وإلحادٌ .

فثمت نصوصٌ يثبت ظاهرها لله صفاتٍ لا تليق بذاته المقدسة ، بل تُعدُّ ـ في تصور أهل السنة والجماعة ـ من خوارم الألوهية ، ومن ذلك : قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (التوبة:٦٧) ، وقوله : ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ (الجاثية:٣٤) ، وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد:٤) ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ (البروج:٢٠) ، وقوله في الحديث القدسي : « **يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي** »[1] ، وقول النبي ﷺ : « **إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ** »[2] .

ففي هذه النصوص خلع النسيان على الله ـ تعالى ـ ، وتلك منقصةٌ لا تتحقق معها أُلوهية ، وإثبات المعية والإحاطة الذاتية لله ـ تعالى ـ ، وهي ـ أيضًا ـ منقصةٌ تستحيل على الإله ، وإثبات المرض لله ، وهو من المستحيلات على الألوهية ، وإثبات الأصابع ، وهي ـ أيضًا ـ مستحيلةٌ عليه .

ومردُّ ذلك كله إلى الاستبداد بالمعاني الظاهرية للنصوص من خلال تحجير الواسع من سنن العرب في كلامها بسبب الجاهلة الجهلاء ؛ لأنَّ التعبير العربي يجري على الحقيقة ويجري على المجاز .

لقد جرَّ العمى عن المجاز خلقًا كثيرًا إلى مزالق كفرية وراء بعض العصابين والمرضى بالشطط الفكري وتطرف الوعي إلى مزالق كفرية ـ والعياذ بالله .

ومن أسباب ذلك أيضًا : إضفاء وهج العقول ، وأنوار البصائر ، والتعامل مع النصوص ببلهٍ وسطحيةٍ ومستويات طفولية لا تليق بالكائن الذي خلقه الله لعبادته وتعمير الكون .

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب عيادة المريض (٢٥٦٩) .

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب القدر ـ باب تصريف الله ـ تعالى ـ القلوب كيف شاء (٢٦٥٤) .

وهذا هو ما عناه العلامة السنوسي وهو يُعدِّد أصول الكفر : « التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية » . اهـ[1] .

● **الأصل الثامن : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾** (الشورى:١١)

يدور البحث هنا حول مخالفة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للحوادث ، وقبل أن ندلف إلى أعماق الموضوع يجدر بنا أن نُقرِّر خمسًا من الركائز الفكرية التي تضيء آفاق هذا الموضوع .

الركيزة الأولى : أنَّ المعاني الظاهرية للنصوص الشرعية إذا كانت لا تتسق مع صرائح العقول ولا مع قواطع الشرع وجب الحكم بأنَّ هذه المعاني الظاهرية غير مرادة على ما سبق بيانه .

الركيزة الثانية : تتمثل في أنَّ آيات الكتاب هي إمَّا محكمة وإمَّا متشابهة ، والمحكمات هي الأصول ، والمتشابهات تُردُّ إلى المحكمات ، وتحكم بأنَّ معانيها الظاهرة غير مرادة .

الركيزة الثالثة : تتمثل في أنَّ نصوص الكتاب والسنة تجري على سنن العربية التي يتنوع فيها التعبير كما قلنا ما بين الحقيقة والمجاز .

فالمجاز قسيمٌ مرنٌ نشيط في اللغات فضلاً عن أنَّه في قمة المرونة والنشاط والبلاغة في لغتنا العربية .

الركيزة الرابعة : التأويل ما هو؟

من باب إتيان البيوت من أبوابها نسجل هنا إعجابنا الشديد بمقولةٍ بديعةٍ لشيخ البلاغة العربية الإمام عبد القاهر الجرجاني في مفهوم التأويل ، يقول الإمام :

---

(١) حاشية الدسوقي على أمِّ البراهين ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، الطبعة العامرة العثمانية .



«حقيقة قولنا : تأوّلتُ الشيء ، أنك تطلّبت ما يؤول إليه من الحقيقة ، أو الموضعَ الذي يؤول إليه من العقل ، لأن أوّلتُ وتأوّلتُ فعَّلتُ وتَفعّلتُ من آل الأمر إلى كذا يؤول ، إذا انتهى إليه ، والمآل ، المرجع ، وليس قولُ من جعل أوّلتُ وتأوّلتُ من أوّل بشيء ، لأن ما فاؤه وعينه من وضع واحد ككوكب ودَدَن لا يُصرَّف منه فعلٌ ، وأوّل أفعلُ بدلالة قولنا : أوّلُ منه ، كقولنا : أسبق منه وأقدم ، فالواو الأولى فاءٌ والثانية عينٌ وليس هذا موضع الكلام في ذلك فيستقصَى» . اهـ[1] .

والذي يُفهم من كلام الإمام أنَّ تأويل الكلام هو المصير به إلى مرجعه .

وعند علماء الأصول : وليس التأويل ـ كما يفهم بعضهم ـ هو التفسير إلا عند الذين يقعون في وهم أنَّ القرآن فيه مترادف ، وهو كلامٌ مرفوضٌ عند المحققين من اللغويين .

ودعوى حمل التأويل على التفسير بالظاهر في باب المتشابهات غير صحيحةٍ ؛ لأنَّ المتشابه خفيُّ المدلول غير واضح ، وإلا لَما كان متشابهًا ، والظاهر في اللغة يُقابل الخفي ، ومن ثَمَّ لا يُقال : إنَّ المتشابه وهو الذي في غاية الخفاء تأويله تفسيره بالظاهر ، فهذا كلامٌ متناقضٌ .

وأمَّا الظاهر في أصول الفقه فبمعنى الراجح من الاحتمالين بالوضع أو بالدليل ، وهو من أقسام الواضح المقابل للخفي الذي من أقسامه المتشابه ، ويُقابل الظاهر المؤول فلا يُتصور اجتماعهما في لفظٍ أيضًا .

والادِّعاء بأنَّ أحدًا لم يقل : إنَّ التأويل صرفٌ عن الرجحان كذبٌ ، بل خلقٌ قالوا به ، كذا قال تقي الدين السبكي[2] .

---

(١) أسرار البلاغة ، ص ٩٨ .

(٢) ينظر : السيف الصقيل ، ص ١٥٨ .



الركيزة الخامسة : حتمية الاحتكام إلى السياق في دراسة المتشابهات

ممَّا انعقد عليه إجماع العلماء المسلمين أنَّ انتزاع النص من سياقه سباقًا ولحاقًا ، وإقحامه في حقل الدلالة الحقيقية لونٌ من ألوان الافتئات على النص ، ومصادمة صرائح العقول وبدائه البراهين ، والصدام مع المحكمات وقواطع الأدلة ، وخروجٌ عن الأصول العامة .

والنصوص المتشابهة انعقد إجماع الأمة على سبيل الإجمال على أنَّ المعاني الحقيقية لألفاظها غير مرادة ، أمَّا بالنسبة إلى تفاصيل جزئياتها فهي محل خلافٍ ، ثم آل الأمر إلى أن ذهب معظم السلف في معظم هذه النصوص المتشابهة إلى الوقوف عند هذا الحدِّ ، وهو أنَّ المعنى الحقيقي لهذه النصوص غير مرادٍ ، وهم لا يتجاوزون أيضًا إلى تعيين معنى مجازي ، ثم تفويض الأمر إلى الله في المعنى المراد ، وهذا ما يُسمَّى بالتأويل الإجمالي .

وذهب معظم الخلف إلى جواز تأويلها وصرفها إلى معانٍ تناسب المعنى الحقيقي لهذه النصوص ، وذلك بضميمة السياق والقرائن اللفظيَّة وغير اللفظية ، لكن كلٌّ ذلك مشروطٌ بشروطٍ خمسةٍ هي :

الأول : أن يكون المعنى الذي حُمل عليه النص ثابتًا لله ـ تعالى .

الثاني : ألا يكون حمل النص على المعنى الذي صُرف إليه مخالفًا لأساليب اللغة العربية .

الثالث : ألا يكون مخالفًا لسياق النص بل يكون مناسبًا له .

الرابع : ألا يكون المعنى الذي صُرف إليه النص مشعرًا بالنقص بالنسبة لله تعالى .

الخامس : أن يكون مشعرًا بالعظمة لله ـ تعالى[1] .

(١) تُنظر هذه الشروط : رسالة متشابه الصفات بين التأويل والإثبات لمحمد صالح بن أحمد الفرس ، ص ٦ .



ونحب هنا أن نشير إلى أنَّ كلَّ واحدٍ من هذه النصوص المتشابهة في سياقه ما يدل على المعنى المجازي الذي استعمل فيه ، فإذا قُطع عن سياقه وأُفرد عن سابقه ولاحقه فاتت هذه الدلالة ، وكذلك إذا جمعت هذه النصوص على صعيدٍ واحدٍ عضَّدتْ هذه الظواهر بعضها البعض ، فيترجح بقاؤها على ظاهرها المفيد للتشبيه .

وفي بيان ذلك يقول تقي الدين بن السبكي : « وانظر إلى هذه الصفات التي يثبتها هذا المبتدع لم تجئ قط في الغالب مقصودةً ، وإنَّما هي في ضمن كلامٍ يُقصد به من أمر آخر ، وجاءت لتقرير ذلك الأمر وقد فهمها الصحابة ؛ ولذلك لم يسألوا عنها النبي لأنَّها كانت معقولة عندهم بوضع اللسان وقرائن الأحوال ، وسياق الكلام وسبب النزول .

ومضت الأعصار الثلاثة التي هي خيار القرون على ذلك حتى حدثت البدع والأهواء ، فيجيء هذا المتخلف بجمع كلمات وقعت في أثناء آياتٍ أو أخبار فَهِم المُوفَّقون معناها بانضمامها مع الكلام المقصود ، فجعلها هذا المتخلف في أمثاله مقصودة ، وبالغ فيها فأورثت الريب في قلوب المهتدين .

وانظر إلى أكثرها لا تجده مقصوداً بالكلام بل المقصود غيره إمَّا بسياق قبله أو بسياق بعده ، أو يكون المُحدَّث عنه معنى آخر ، ويكون ذلك مذكوراً على جهة الوصف المقوي لمعنى ما سيق الكلام لأجله »[1] .

فمن هذا الكلام كلِّه يتبيَّن لنا أنَّ مذهب السلف هو تفويض النصوص ، وهذا التفويض له خطوتان اثنتان :

الأولى : نفي المعنى المحال على الله ؛ لأنَّ هذا المعنى المحال يتنافى مع المحكم القطعي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) .

---

(١) يُنظر : السيف الصقيل ، ص ١٦٩ .



الثانية : تفويض علم ذلك إلى الله .

ولا يتحقق تفويضٌ إلا بعد تنزيه الله عن المعنى الذي لا يليق به ، أمَّا لو بقي المعنى الذي لا يليق ـ أحد الاحتمالين ـ ما كان هناك تفويضٌ ، هذه طريقة السلف .

وهناك طريقةٌ ثانيةٌ يتبناها الكثير من الخلف ، وهي التأويل للنصوص المتشابهة تأويلاً تفصيليًا بعد إحالة الظاهر .

وهنا نضرب مثالاً يتضح به المقال :

قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ (الفتح: ١٠) هنا ثلاثة أمورٍ :

الأمر الأول : إثبات اليد كما هو منطوق اللفظ . الثاني : إثبات القدرة . الثالث : إثبات أنَّ اليد القدرة . الأول ثابتٌ بالقرآن ، والثاني ثابتٌ بالعقل والنقل ، والثالث تفسيرٌ وبيانٌ ، والتفسير بالظنِّ لا مانع منه .

والمصير إلى أيٍّ من هذين الرأيين ـ كما قلنا سابقًا ـ التفويض أو التأويل لا يخلو من تأويلٍ إجماليٍّ في الأول ، وتفصيليٍّ في الثاني .

وبيان ذلك أنَّ المعنى اللغوي لليد إنَّما هو الجارحة المعروفة التي يتمتع بها المخلوق ، وهذا منفيٌّ عن الباري ـ سبحانه وتعالى ـ لكن هل يجب الوقوف في التأويل عند هذا الحدِّ الإجمالي كما جنح إليه السلف المفوِّضة ، أم يجوز تجاوز هذا التأويل الإجمالي إلى ما هو معروفٌ من لغة العرب من استعارةٍ أو مجازٍ؟

وبعد ؛ فقد بسطتُ هذه الركائز الخمسة كلَّها ليتزوَّد منها القارئ بما يكشف عن الجذور الأساسية أو العصب الحقيقي لفهم الطريقتين : طريقة التفويض ، وطريقة التأويل ، وهكذا فإنَّ جدال البعض في هذه الحقائق العلمية لا يصدر إلا عن جاهلةٍ أو استكبار منهم عليها وعن تأبٍّ للانصياع لها .

وإنَّ من البداهة بمكانٍ أنَّ الرجوع بمعرفةٍ صحيحةٍ ثابتةٍ لكلٍّ من الطريقتين لا يمكن أن يتم إلا اعتمادًا على نسيجٍ فكريٍّ يتكون من الاعتماد على الخبر والنص عن أئمة السلف ، والتأمل العقلي واللغوي بالطريقة العلمية السلمية ، فإذا رجعنا إلى منقولات السلف نجد التفويض - في الأعمِّ الأغلب - مستفيضًا في كلامهم ، من ذلك :

ما رواه البيهقي بسنده إلى الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ : سُئِلَ الْأَوْزَاعِيُّ وَمَالِكٌ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ - ولا شكَّ أنَّ هؤلاء من أعيان السلف - عَنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي توهم التَّشْبِيهِ ، فَقَالُوا : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلاَ كَيْفِيَّةٍ .

وروى - كذلك - بسنده إلى أبي داود الطيالسي قال : كان سفيان الثوري ، وشعبة ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وشريك ، وأبو عوانة ، لاَ يُحِدُّونَ ، وَلاَ يُشَبِّهُونَ ، وَلاَ يُمَثِّلُونَ ، يَرْوُونَ الْحَدِيثَ وَلاَ يَقُولُونَ كَيْفَ ، وَإِذَا سُئِلُوا أَجَابُوا بِالْأَثَرِ» . أهـ[1] .

وقال الحافظ ابن حجر : «أَخْرَجَ أَبُو الْقَاسِمِ اللاَّلَكَائِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أُمِّهِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالْإِقْرَارُ بِهِ إِيمَانٌ وَالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ» . اهـ[2] .

وقال أيضًا : «وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْحَوَارِيِّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ : كُلُّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ فَتَفْسِيرُهُ تِلاَوَتُهُ وَالسُّكُوتُ عَنْهُ» . اهـ[3] .

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٣/٣ .

(٢) فتح الباري ١٣/٣٤٢ .

(٣) فتح الباري ١٣/٣٤٣ .



وقال الإمام الترمذي في سننه : « وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي هَذَا الحَدِيثِ - يعني حديث الصدقة - وَمَا يُشْبِهُ هَذَا مِنَ الرِّوَايَاتِ مِنَ الصِّفَاتِ : وَنُزُول الرَّبِّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، قَالُوا : قَدْ تَثْبُتُ الرِّوَايَاتُ فِي هَذَا وَيُؤْمَنُ بِهَا وَلاَ يُتَوَهَّمُ وَلاَ يُقَالُ : كَيْفَ . هَكَذَا رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ ، وَسُفْيَان ابْنِ عُيَيْنَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ المُبَارَكِ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي هَذِهِ الأَحَادِيثِ : أَمِرُّوهَا بِلاَ كَيْفٍ ، وَهَكَذَا قَوْلُ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ » . اهـ[1] .

وقال الذهبي : « وَالمَحْفُوظُ عَنْ مَالِكٍ - رَحِمَهُ اللهُ - رِوَايَةُ الوَلِيْدِ بنِ مُسْلِمٍ ، أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ أَحَادِيْثِ الصِّفَاتِ ، فَقَالَ : أَمِرَّهَا كَمَا جَاءتْ ، بِلاَ تَفْسِيْرٍ » اهـ[2] .

وقال الترمذي عند الكلام على حديث « يَمِينُ الرَّحْمَنِ مَلأَى سَحَّاءُ » : « وَهَذَا حَدِيثٌ قَدْ رَوَتْهُ الأَئِمَّةُ ، نُؤْمِنُ بِهِ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفَسَّرَ أَوْ يُتَوَهَّمَ ، هَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الأَئِمَّةِ : الثَّوْرِيُّ ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، وَابْنُ عُيَيْنَةَ ، وَابْنُ المُبَارَكِ أَنَّهُ تُرْوَى هَذِهِ الأَشْيَاءُ وَيُؤْمَنُ بِهَا وَلاَ يُقَالُ كَيْفَ » اهـ[3] .

وروى البيهقي بسنده عن أَحْمَدَ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيَّ يَقُولُ : « حَدِيثُ النُّزُولِ قَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ وُجُوهٍ صَحِيحَةٍ وَوَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ مَا يُصَدِّقُهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر:٢٢) ، وَالنُّزُولُ وَالْمَجِيءُ صِفَتَانِ مَنْفِيَّتَانِ عَنِ اللهِ - تَعَالَى - مِنْ طَرِيقِ الْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ بَلْ هُمَا صِفَتَانِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى بِلاَ تَشْبِيهٍ - جَلَّ اللهُ وَتَعَالَى - عَمَّا تَقُولُ الْمُعَطِّلَةُ

---

(١) سنن الترمذي ٤١/٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠٥/٨ .

(٣) سنن الترمذي ٢٥٠/٥ .



لِصِفَاتِهِ ، وَالْمُشَبِّهَةُ بِهَا عُلُوًّا كَبِيرًا». ثم قال البيهقي : وَكَانَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يَقُولُ : إِنَّمَا يُنْكِرُ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَنْ يَقِيسُ الْأُمُورَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ النُّزُولِ الَّذِي هُوَ تَدَلِّي مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلَ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ فَوْقَ إِلَى تَحْتٍ وَهَذِهِ صِفَةُ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ ، فَأَمَّا نُزُولُ مَنْ لاَ تَسْتَوْلِي عَلَيْهِ صِفَاتُ الْأَجْسَامِ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ غَيْرُ مُتَوَهَّمَةٍ فِيهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتِجَابَتِهِ دُعَاءَهُمْ ، وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لاَ يَتَوَجَّهُ عَلَى صِفَاتِهِ كَيْفِيَّةٌ وَلاَ عَلَى أَفْعَالِهِ كَمِّيَّةٌ ، سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». اهـ[1] .

هذا ، ولدينا من نصوص السلف في التفويض الكثير والكثير بعضها ظاهرٌ ، وبعضها الآخر نصٌّ صريحٌ بأنَّهم ـ رضي الله عنهم ـ يُفوضُون ، وما نقله الذهبي عن إمام دار الهجرة من أنَّه قال : «أَمِرَّهَا كَمَا جَاءَتْ ، بِلاَ تَفْسِيرٍ» نصٌّ صريحٌ في ذلك ، وكذلك ما نقله ابن حجر عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أنَّه قَالَ : «كُلُّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ فَتَفْسِيرُهُ تِلاَوَتُهُ وَالسُّكُوتُ عَنْهُ» ، وكذلك ما نقله البيهقي عن أحمد بن عبد الله المزني .

وننتقل بعد هذا إلى بيان مذهب التأويل التفصيلي ، فنقول :

من المعلوم أنَّ العلماء الأثبات يلجؤون إلى التأويل عند استحالة ظاهر النص ، وبذا يصح التأويل فرضًا عقلاً ونقلاً ولغةً ، وكلُّ ذلك يكون بالدليل ، والدليل حسب مصدره ، فقد يكون عقليًا ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ (يوسف:٨٢) ، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (البقرة:١٥) .

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٣/٤ .

وقد يكون لغويًا بحيث يكون الاستعمال اللغوي ذاته غير صالحٍ للحقيقة ، كقوله تعالى : ﴿ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة:١٩٤) إذ الاعتداء لا يُسمَّى قصاصًا إلا من قبيل المجاز والمشاكلة .

وقد يكون نقليًا كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) القاضي على تأويل كلِّ نصٍ يُوهم التشبيه .

وعلى هدي هذا الأصل وحفاظًا على نصوص الوحي من نزعات الهوى والذاتية والتجسيم والتشبيه وضع الأئمة شروطًا لا يُعتبر التأويل صحيحًا مقبولاً إلا بتوافرها ، فقالوا :

يصحُّ العدول عن الظاهر وارتكاب التأويل إذا وجد المانع وتحقق الشرط ، والمانع ثلاثة أمور : الأول : المعارض العقلي . الثاني : المعارض النقلي الأقوى . الثالث : القرينة المانعة من إرادة الظاهر .

أمَّا الشرط فهو أن يتعذر الجمع إذا وجد التعارض ، فإن أمكن الجمع بوجهٍ من الوجوه وجب المصير إليه .

ثم إنَّ منهج التأويل ليس استنباطًا عقليًا محضًا ، ولكنَّه استنباطٌ ينطلق من منطق اللغة الذي يجب أن يُقرَّ الاحتمال أو المعنى الذي يؤول إليه اللفظ بوجهٍ من وجوه دلالته ، أو عن طريق التوسع اللغوي الذي نسمِّيه مجازًا مع بيان العلاقة أو القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي ، أو بالاستناد إلى عرف الشرع أو عادة الاستعمال .

ونزيدك هنا بيانًا بأنَّه حيث استحال ظاهر النص وجب التأويل كما ذكرنا ، لكن معرفة استحالة الظاهر لها طرقٌ تدل عليه ، منها :

أ- قيام التعارض بين النقل والعقل ، وفي بيان ذلك يقول الإمام ابن المعلم القرشي في كتابه (نجم المهتدي ورجم المعتدي) ما نصه : « تعارض معنا عقلٌ ونقلٌ ،

فلا سبيل إلى إعمالهما ؛ لأنَّه يلزم منه الجمع بين النفي والإثبات ، ولا سبيل إلى إلغائهما ؛ لأنَّه يرفع النفي والإثبات ، ولا سبيل إلى إعمال العقل دون النقل ؛ لأنَّ النقل ثمرة العقل ، ففيه إبطالٌ لفائدة العقل ، ولا سبيل إلى إعمال النقل وإبطال العقل ؛ لأنَّ الدلائل العقلية أصلٌ لتصديق الشواهد النقلية ؛ فإلغاء الأصلِ مع تصحيح الفرع يُفضي إلى تكذيب شواهد العقل ، وتكذيب شواهد العقل يُفضي إلى عدم تصحيح النقل ، فلم يبق إلا إبقاء العقل وتأويل النقل ، وقد قلتم إنَّ موافقة التأويل ممكنة ، وقد ألجأنا إليه الدليل ، فوجب القول بالتأويل .

مثال ذلك : صفات الباري ، فإن كان ظاهرها لا يُوهم التشبيه حملناها على ظاهرها لعدم المعارضة العقلية ، وإن كان ظاهرها يُوهم التشبيه فضرورة العقل تُوجب التأويل تفصيلاً أو إجمالاً ليقع التنزيه في قلبه ، ولا يبقى لبصير ببصيرته طموح ، ولا إلى الحمل على الظاهر جنوح ، فالتأويل وسيلةٌ إلى التنزيه ، فتعيَّن القول بوجوبه » . اهـ[1] .

ب ـ قيام التعارض الظاهري بين ظاهر النص الجزئي ، وبين أصلٍ عامٍ .

مثال ذلك : ما رُوي أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الميت ليعذَّب ببكاء أهله عليه » ، والحديث من باب المطلق ، أي : إنَّ الميت بحسب ظاهر هذا الحديث يُعذَّب بسبب بكاء أهله عليه في جميع الحالات ، ومن هنا ردته السيدة عائشة رضي الله عنها لأنَّه يُعارضه أصلٌ عامٌ في القرآن الكريم ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (النجم:٣٨) .

وقد بيَّن أمير المؤمنين في الحديث ألا تعارض بين الحديث والآية حيث وضع قيدًا (إذا كان ذلك من سنته) ، فرضي الله عن الإمام البخاري ، ويا خيبة من طعن في صحيح البخاري من غير فقهٍ .

(١) نجم المهتدي ورجم المعتدي ١/١٩٧ بتصرفٍ .

وبتقييد الإمام البخاري للحديث يتبيَّن أنَّه متسق المعنى مع الأصل العام الذي قرَّرته الآية الكريمة ، وإعمال النصين ما أمكن خيرٌ من إهمالهما أو إهمال أحدهما صونًا لكلام الشرع عن التناقض والإبطال ، فالموجب للتأويل إذًا هذا التعارض الظاهري .

وينبغي أن نزيدك هنا من الشعر بيتًا ونقول : بل ذهب كثيرٌ من السلف إلى التأويل ، من ذلك : ما صحَّ من تأويل الإمام أحمد (لجاء) في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر:٢٢) بمعنى وجاء أمر ربك ، كما قال تعالى : ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ (النحل:٣٣)[1] .

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : «لَقَدْ ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ مِنْ فَعَالِكُمَا» في حديثٍ طويلٍ تضمَّن قصة الأنصاري الذي أكرم مثوى ضيف رسول الله ﷺ ، وبات هو وزوجه طاويين ، وقد أخرجه البخاري ومسلم كلٌّ منهما من طريق ، فقد أوَّل البخاري الضحك بالرحمة ، ولم يقف عند مبدأ : أَمرُّوها لا كيفٍ[2] .

ومن ذلك ما نقله البيهقي في الأسماء والصفات عن حماد بن زيد من تأويله لنزول الله ـ تعالى ـ إلى السماء الدنيا الوارد في أحاديث النزول بإقباله ـ جلَّ جلاله ـ إلى عباده[3] .

ومن ذلك ما قاله البيهقي في قوله عزَّ وجلَّ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ (البقرة:١١٥) ونصه : « حَكَى الْمُزَنِيُّ عَنِ الشَّافِعِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الآيَةِ: يَعْنِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ: فَثَمَّ الْوَجْهُ الَّذِي وَجَّهَكُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ. ثم أخرج

---

(١) يُنظر : الأسماء والصفات للبيهقي ، ص ٢٩٢ .

(٢) يُنظر : فتح الباري ٨٢/٧ ، والأسماء والصفات للبيهقي ، ص : ٧٠ .

(٣) الأسماء والصفات ، ص ٤٧٠ .

عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:١١٥) قَالَ : قِبْلَةُ اللَّهِ فَأَيْنَمَا كُنْتَ فِي شَرْقٍ أَوْ غَرْبٍ فَلاَ تَوَجَّهَنَّ إِلاَّ إِلَيْهَا » . اهـ[(١)] .

ومن ذلك ما ذكره ابن حجر في الفتح ، والبغوي في تفسيره عن ابن عباسٍ وأكثر المفسرين أنـهم تأوَّلوا ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) في قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) بمعنى ارتفع .

ومثله ما ذكره ابن حجر عن ابن بطَّال من كلامٍ طويلٍ عن معنى الاستواء في الآية المذكورة إلى أن قال : « وأمَّا تفسير ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) علا فهو صحيحٌ ، وهو المذهب الحق وقول أهل السنة »[(٢)] .

فهذه طائفةٌ من صفات الله وأفعاله الواردة في القرآن وصحيح السنة ، وقد تأوَّلها تأويلاً تفصيليًّا كثيرٌ من علماء السلف ، ولم يقفوا عند « أَمِرُّوها على ظاهرها بلا كيفٍ » .

• الأصل التاسع : رؤية الأشعري وأهل السنة والجماعة في تعليل أفعال الله وأحكامه

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : المشهور من مذهبهم أنَّ أفعال الله ـ تعالى ـ وأحكامه منزهةٌ عن كونها معللة بالأغراض ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ أسمى من أن يبعثه على الفعل غرضٌ أو أن تكون لفعله علةٌ غائيةٌ ، بيد أنـهم يرون أنَّ أفعال الله لا تخلو من أن يترتب عليها حكمة أو مصلحة يرجع نفعها إلى العباد ؛ لأنَّ الله غنيٌّ غير محتاج إلى شيءٍ .

---

(١) الأسماء والصفات ، ص ٣٠٩ .

(٢) يُنظر : فتح الباري ٣١٥/١٣ ، وتفسير البغوي سورة طه آية ٥ .



فالله - تعالى - حكيمٌ ويترتب على حكمته أنَّ أفعاله تترتب عليها حكم ومصالح للعباد ، هذا هو مذهب الأشاعرة .

أمَّا الماتريدية فقد ذهبوا إلى أنَّ أفعال الله كلَّها معللة بالعلل والأغراض ، وقد وافقهم بعض الأشاعرة .

وللعلامة التفتازاني في شرح المقاصد ملحظٌ في اتجاه السادة الأشاعرة حيث يقول : « ما ذهب إليه الأشاعرة من أنَّ أفعاله - تعالى - ليست معللة بالأغراض يُفهم من بعض أدلته عموم السلب ولزوم النفي بمعنى أنَّه يمتنع أن يكون شيءٌ من أفعاله معللاً بالغرض ، ومن بعضها سلب العموم ونفي اللزوم بمعنى أنَّ ذلك ليس بلازمٍ في كلِّ فعلٍ . . . . . ثم قال : « والحقُّ أنَّ تعليل بعض الأفعال سيما شرعية الأحكام بالحِكَم والمصالح ظاهرٌ كإيجاب الحدود والكفارات وتحريم المسكرات وما أشبه ذلك ، والنصوص - أيضًا - شاهدةٌ بذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) ، وقوله : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة:٣٢) ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب:٣٧) ، ولهذا كان القياس حجةً إلا عند شرذمةٍ لا يُعتدُّ بهم ، وأمَّا تعميم ذلك بأن لا يخلو فعلٌ من أفعاله من غرضٍ فمحل بحث» . اهـ[1] .

ومن أجمل ما تمَّ الوصول إليه من كلام علمائنا الأجلاء ما وافانا به العلاَّمة مصطفى صبري في كتابه (موقف العقل) إذ يقول : « أمَّا القول باستلزام كون أفعال الله عبثًا واتفاقًا إذا لم تُعلل بالأغراض والعلل الغائية ، فوهمٌ محضٌ منشؤه كون

(١) شرح المقاصد ١١٥/٢ .



القائلين بهذا يقيسون الله - تعالى - على أنفسهم أي على الإنسان الذي لا يعمل إلا بالمرجح والعلة الغائية ، فإذا لم يعمل بذلك يكون فعله عبثًا واتفاقًا ، وكان حسبهم في التنبه لخطئهم أنَّ أصحاب الرويَّة من البشر العاملين بالمرجح والعلة الغائية يعملون بهما من حيث أنهم في حاجةٍ إلى التفكر في عواقب أفعالهم .

فنفي التعليل من أفعاله تعالى معناه أنَّه لا يبني أفعاله عليهما ؛ لأنَّ ذلك شأن المفكرين في عواقب الأمور التي يجب تنزيه الله - تعالى - عنها ، ولا يُنافيه أنَّ أفعاله تعالى لا تخلو عن الحِكَم والمصالح من غير بنائها عليها ، لكنها لا يعبر عنها بالعلل الغائية ؛ لأنَّ العلة الغائية ما يبني الفاعل فعله عليها في ذهنه ويفكر فيه قبل الإقدام على الفعل ، ومن هنا قلنا الحكمة تتبع أفعاله ولم نقل افعاله تتبع الحكمة . . . . . » .

إلى أن قال : « وخلاصة القول : أنَّ أفعاله - تعالى - تصدر عنه من غير تفكير في عواقبها كما نفكر نحن البشر ، وعدم التفكير هذا مقتضى كماله تعالى ، في حين أنَّ كمالنا في التفكير ، وليس كمثله شيءٌ .

فإن اعترض معترضٌ بأنَّ الله - تعالى - يعلم عواقب أفعاله من غير تفكيرٍ ، فبهذا العلم يكون قد علل أفعال نفسه .

قلنا : ليس العلم بالعواقب والغايات تعليلاً منه تعالى لأفعاله بها ، إنَّما التعليل بناء أفعاله عليها في علمه قبل فعلها وهذا هو التفكير في العواقب بعينـه ، وهـو ما لا يستطيع القائل بالتعليل إنكاره - تعالى الله عنه .

ونحن ننفي التعليل بالغايات لا الغايات ولا العلم بها ، فخذ هذا الفرق الدقيق منا ، كما أخذناه من توفيق الله .

نعم إذا نُظر في الأمر بأعيننا نحن البشر يكون كأنَّ الله - تعالى - فعل تلك الأفعال لتلك الغايات ، بمعنى أنَّه لو كنَّا نحن فعلنا تلك الأفعال لكانت غاياتها



التي تتبعها عللاً غائية لها ، ومن هنا صحَّ اتخاذها دليل العلة الغائية لوجود الله ، مع أنـه ليس هناك علية بالنسبة إلى فعل الله بل غايات فقط تتبع أفعاله وتدل على علم فاعلها بالمناسبة بين تلك الأفعال وتلك الغايات» . اهـ[1] .

المطلب الثاني : السبب والمسبب رؤية في العلاقة بينهما

أثبت الأشاعرة الربط العادي بين السبب والمسبب لكنَّهم أنكروا الربط الحقيق المؤثِّر ، فهم يرون أنَّ السبب المؤثِّر في إيجاد الشيء هو الله ، وأنَّ هذا السبب هو أمرٌ ظاهريٌّ فقط ، فالرزاق هو الله ، والسعي على الرزق سببٌ ظاهريٌّ فقط .

أمَّا مَنْ يقولون بأنَّ السبب هو الفاعل بذاته بمعنى أنَّ السعي على الرزق هو الذي يجلب الرزق حقيقةً ، وبأنَّ النار تحرق بذاتها فهم كفارٌ عند أهل السنة لأنَّ كلامهم يُناقض توحيد الله .

أمَّا مَنْ يقولون بأنَّ السبب مؤثِّرٌ في وجود المسبب بقوةٍ أودعها الله فيه فيسلب الله تلك القوة متى شاء ، فهذا له حظٌّ من النظر ، وهم لا يُبدَّعون بذلك ، خلافًا لِمَا رآه بعض المتأخرين على أنَّ الاعتقاد الأصوب أنـه لا تأثير في الكون لأي شيءٍ إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وأنَّ كلَّ ما يتراءى لنا من مظاهر الأسباب إنَّما هو أسبابٌ جعلية جعلها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كذلك .

وفي بيان ذلك يقول العلاَّمة مصطفى صبري في كتابه (القول الفصل) : «التحقيق أنَّه إذا وقع الإحراق ـ أي في مماسة النار للجسم ـ فليس ذلك من النار إذ الفاعل الحقيقي في كلِّ شيءٍ هو الله ، وليس في الكون مؤثِّرٌ غيره ، فمن عزا فعل الإحراق إلى النار والإطفاء إلى الماء ، وقال : إنَّ كلاًّ منهما فاعل له فعلٌ خاصٌّ به ، ثم ادَّعى بملء فيه أنـه ثابت بتجربة ومعاينة كلِّ أحدٍ في كلِّ زمانٍ

(١) موقف العقل والعلم من رب العالمين ، ص ٣-١٧ .



ومكانٍ فقد وهم ؛ لأنَّ الثابت بالتجارب والمشاهدات إنَّما هو حصول الإحراق والاحتراق عند مماسة النار ومقارنتها ، لا أنَّ فاعل فعل الإحراق ومؤثِّر هذا الأثر ـ أعني الإحراق ـ هو النار .

ولا يلزم من اضطراب الأثر ودورانه مع النار أن تكون هي علته الفاعلية ؛ لأنَّ العلة أمرٌ لا يُرى ولا يتعلق به المعاينة والمشاهدة حتى يصحَّ تعليل العلة على أنَّها النار ، وحتى يدَّعى أنَّ ذلك مُجرَّبٌ مشهورٌ .

ومن هنا يتبيَّن أنَّ كثيرًا من الأمور التي يظنُّها الظانون أنَّها ثابتةٌ بالتجربة والمعاينة ليس كما يظنون ، فيجب على صاحب النظر الدقيق في المجربات أن يُحدد مدلول التجربة تحديدًا دقيقًا ، ولا يتعدى حدودها » .

ثم قال : « وهذا عين ما قاله علماؤنا الأصوليون : « لا تثبت العلية بالدوران » ففي حادثة الإحراق والاحتراق نرى الاحتراق والجسم المحترق ونرى معهما النار ، ولا نرى كون المُحرِق هو النار ، ولا نُعيِّن النار على أنَّها فاعل الإحراق وعلته كما نُعيِّن القابل ـ أي المحترق ـ على أنَّه الجسم الفلاني ، وإن كنَّا نرى الإحراق والاحتراق فيما رأيناه دائمًا يقترنان بالنار ويدوران معها ، وذلك لأنَّ العلية لا تُرى ولا تثبت بالدوران ، وليست رؤية المقارنة رؤية العلية ، ومن ثمَّ قال المتكلمون الأشاعرة ـ ونعم ما قالوا ـ إنَّ الكائنات بأجمعها مستندةٌ إلى الله من غير واسطةٍ » . اهـ[1] .

أمَّا ما ورد من باء السببية في القرآن الكريم فتُحمل السببية فيه على السببية العادية والعرفية دون السببية الحقيقية ، وذلك لأنَّ اللغة يُلاحظ فيها العادة والعرف دون أن يُلاحظ فيها التدقيقات الفلسفية .

---

(١) القول الفصل ، ص ٣٣-٣٦ بتصرفٍ واختصارٍ .



وفي نصرة مذهب أهل السنة يقول العزُّ بن عبد السلام : « والعجب أنَّهم ـ الحشوية ـ يذمُّون الأشعري بقوله : « إنَّ الخبز لا يُشبع والنار لا تحرق » ، وهذا كلامٌ أنزل الله معناه في كتابه ؛ فإنَّ الشبع والرِّيَّ والإحراق حوادث انفرد الله بخلقها، فلم يخلق الخبز الشبعَ ، ولم يخلق الماء الرِّيَّ ، ولم تخلق النار الإحراقَ ، وإن كانت أسبابًا في ذلك ، فالخالق هو الله دون السبب ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال:١٧) فنفى أن يكون رسوله ﷺ خالقًا للرمي، وإن كان سببًا فيه .

وقد قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (النجم:٤٣-٤٤) فاقتطع الإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء عن أسبابها وأضافها إليه ، فكذلك اقتطع الأشعري ـ رحمه الله ـ الشبع والرِّيَّ والإحراق عن أسبابها وأضافها إلى خالقها لقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الزمر:٦٢) ، وقوله : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ (فاطر:٣) ، ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ (يونس:٣٩) ، ﴿ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل:٨٤) .

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا ... وآفته من الفهم السقيم » . اهـ[1] .

وممَّا يرتبط بمسألة السببية ارتباط الخاص بالعام : استعمال الألفاظ التي تدل على سببية الأشياء لبعضها ، وبإيجازٍ وجيزٍ يقول شيخنا العلامة البوطي ـ رحمه الله ـ : « لا ضير في استعمال ألفاظٍ تدل على سببية الأشياء لبعضها إذا سلمت العقيدة ، كما أنَّه لا ضير في التوسل بالرسل والأنبياء من باب أولى » . اهـ[2] .

* * *

(١) ملحة الاعتقاد ، ص ٤٥ .

(٢) كبرى اليقينيات ، ص ٢٩٤ .



عقيدة أهل السنة والجماعة
الإلهيات

• أولاً : وجود الله

بين يدي الإيمان بالله وصفاته

ونحن نؤمُّ الحديث عن الإيمان بوجود الله وصفاته يجب أن نقف أمام نقاطٍ ثلاث :

الأولى : الإيمان بالله ـ تعالى ـ هو أصل الأصول في باب الاعتقاد ، فوزن العبد في عالم الإنسان إنَّما هو باعتبار صوابية انتمائه بالعبودية لله بذاته وصفاته وأسمائه الحسنى على ما هو جوهر عقيدة أهل السنة والجماعة .

الثانية : الإيمان بالله ذاتًا وصفاتٍ لا يعني الإحاطة الإنسانية به ، فنحن نؤمن بالله دون محاولة الإبحار في ذاته أو في صفاته .

الثالثة : الطريق إلى الإيمان رسمه القرآن الكريم إذ بيَّن أنَّه التفكير في آثار الله وآلائه في النفس الإنسانية ، وفي الكون وما فيه .

وليس معنى ذلك أنَّ العقل عاجزٌ عن التعرف على حقيقة الذات الإلهية أنَّ هذه الذات لا وجود لها ، فكم من الحقائق المادية التي يغصُّ بها الكون قد اعترف بها العالم ، بينما العقل ما يزال عاجزًا عن إدراك دقائقها كالذرة مثلاً .

وقد ذكر علماء أهل السنة أنَّه يجب على كلِّ مكلفٍ معرفة الدليل العقلي الجملي على وجود الله ـ تعالى ـ من ذلك :-



أنَّه لم يدَّع أحدٌ من البشر على طول التاريخ أنَّه خلق نفسه، ولم يدَّع أحدٌ أنَّه تخلَّق ذاتيًا فلم يبق إلا الله، وهذا هو منطق القرآن ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور:٣٥)، إذ الجزء الأول من هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ (الطور:٣٥) يقرر عن طريق الاستفهام الاستنكاري استحالة أن يجيء الوجود من العدم أي استحالة أن يجيء شيءٌ هكذا من غير سببٍ موجدٍ، وهذا الجزء من الآية الكريمة تعبيرٌ بالغ الدقة عن قضيةٍ مركوزةٍ في طبائع الموجودات كلها، وأعني بها قضية السببية وهي ذات القضية التي عرفها علماء الأشاعرة في دليلهم بقولهم: (كل حادث لابد له من محدث).

أمَّا الجزء الثاني من الآية الكريمة ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ فإنَّه يقرر بطريقة الاستفهام الاستنكاري - أيضًا - استحالة أن يخلق الشيء نفسه، ومن ثمَّ لا يصح في منطق العقل أن يكون المخلوق خالقًا، كما لا يصح أن يكون الخالق مخلوقًا.

وهذا المعنى أيضًا هو ما انتهى إليه دليل علماء الأشاعرة من أنَّ للعالم مُحدِثًا وهو الله - تعالى -، فالآية الكريمة تنبِّه في المقام الأول إلى قانون السببية، ثم تنبِّه إلى مبدأ الفصل المطلق بين مفهوم كلٍّ من الخالق والمخلوق.

ونختم هذه الكلمة بقول شيخ الدعاة الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -: «إننا لم نكن شيئًا فكنا فمَنْ كوَّننا؟ ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام:٩١). وهذا يسمى دليل الحدوث.

أمَّا الدليل العقلي التفصيلي على وجود الله، فقد قال علماء أهل السنة يجب معرفته وجوبًا كفائيًا، وهو أنَّ العالم بجميع أجزائه مُحدَث، وكل حادثٍ لابد له من مُحدِثٍ فاعلٍ بالإرادة والاختيار، ومن هنا فلا يصح في منطق العقل أن يكون وجود العالم بالصدفة لأنَّ العقل يحيل وجود شيء ما بدون فاعل؛ إذ يلزم على

ذلك محال ، وهو ترجيح وجود الجائز على عدمه بدون مرجح ، وذلك لأنَّ وجود الممكن وعدمه متساويان عقلاً ، فلا يترجح أحدهما على مقابله إلا بمرجحٍ، ومن ثَمَّ لا يصح كذلك أن يكون العالم خلق نفسه ؛ لأنَّ في ذلك جمعًا بين متنافيين بأن يكون العالم خالقًا متقدمًا ومخلوقًا في الوقت نفسه متأخرًا ، وذلك محال عقلاً ، كما أنَّه لا يصح أن يكون ذلك المُحدِث طبيعةٌ لا اختيار لها ولا إرادة ؛ إذ لا يتأتى منها تخصيص الممكن بالوجود بدل العدم أو بوقت دون وقت أو صفة دون صفة ، وينتج من ذلك كله أن يكون خالق العالم أزليًا ؛ إذ لو لم يكن أزليًا للزم حدوثه فيفتقر إلى محدث ، فيلزم الدور والتسلسل ، وكل منهما محال في منطق العقل ، فثبت أنَّ لهذا العالم خالقًا أزليًا فاعلاً بالإرادة والاختيار .

• الإيمان بالله حقيقة فطرية

كل الأجناس لاسيما الإنسان مفطورةٌ على أنَّ سكينتها تتمثل في الشعور بأنَّ لها إلهًا تأوي إليه عند ضعفها ، وتسأله المعونة عند عجزها ، وتستنصر به كلما عوقت سيرتها شدائد الحياة وغوائلها ، ففكرة الألوهية لم تكن بمبعدةٍ عن ذهنية الإنسان ، حتى إنَّ الإمام الرازي وهو قطب في الأشعرية يرى أنَّ الحيوانات والوحوش والطيور والنبات والجمادات تنجذب إلى الإله ، والرازي هنا ينطلق من فهمه لقوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٤).

قال الإمام الرازي : « اعلم أنَّ الحي المكلف يسبح لله بوجهين :

الأول : بالقول كقوله باللسان سبحان الله .



والثاني : بدلالة أحواله على توحيد الله - تعالى - وتقديسه وعزته ، فأما الذي لا يكون مكلفا مثل البهائم ، ومن لا يكون حيا مثل الجمادات فهي إنما تسبح لله - تعالى - بالطريق الثاني »[1] .

ثم قال : « قوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ تصريحٌ بإضافة التسبيح إلى السموات والأرض وإلى المكلفين الحاصلين فيهن ، وقد دلّنا على أنَّ التسبيح المضاف إلى الجمادات ليس إلا بمعنى الدلالة على تنزيه الله - تعالى »[2] .

وهذا الشعور المشترك بين الناس يشبه أن يكون حقيقة نفسية أشار إليها البيان القرآني في قوله : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ (الأعراف:١٧٢) .

فظاهر هذه الآية أنَّ الله قد أخذ الميثاق على بني آدم بأنَّه هو ربهم وخالقهم ، وأنَّ هذه الأرواح أقرت بمعرفته وشهدت بربوبيته في عالم الذر قبل وجودها في هذا العالم بآمادٍ وأزمان لا يعلم مداها إلا الله - تعالى .

والبيان القرآني يشير في وضوح لا لبس فيه إلى هذه الفطرية ، ويقرر حقيقتها ، ويعتبرها حجر الزاوية في بناء العقيدة الإلهية ، وذلك في قوله : ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم:٣٠) .

وثمت ما يسمى بـ (دليل الإبداع) ، ونضرب مثلاً من القرآن حيث لفت الله أنظار الأعراب البداة إلى بديع صنعه تعالى ، فقال : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ (الغاشية:١٧-٢٠) .

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٤٧/٢٠ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٨/٢٠ .

وهذا الكون المحكم في جميع شئونه ، وفي جميع جوانبه يستحيل أن يبدعه هذا الإبداع المحكم إلا قدرة لها حكمة مطلقة وعلم مطلق وإرادة مطلقة ، ولا يكون ذلك إلا لله قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان:٦١-٦٢) .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٢-١٣) .

وفي البيان القرآني آيات شتى تقرر هذا الدليل ، ويسمى دليل العناية ودليل النظام .

وبعد دليل الإبداع والعناية يطالعنا دليل الحركة يستلهمه المرء من تأملاته في النجوم وأفلاكها ، وفي الأفلاك وما فيها ، وفي الشمس وحركاتها الدائمة ، في تعاقب الليل والنهار دون اختلال ، وذلك يستلهم من آيات كثيرة في القرآن من ذلك : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس:٤٠)[١] .

ولعلَّ سائلاً يسأل فيقول : **لماذا اللجوء إلى أدلة عقلية ومعنا الوحي الشريف؟**

والجواب : الوحي الشريف فيه الغناء كله لكننا نعلم أنَّ خطاب الوحي ليس للمؤمنين فقط إنَّما هو للعالمين ، فإذا خاطبنا غير مسلم بالوحي عارضنا بأنَّه

(١) يُنظر : النكت والعيون للماوردي ٢٧٧/٤-٢٧٩ ، وتفسير القرآن لابن المظفر السمعاني ٢٢٩/٢-٢٣١، ومفاتيح الغيب ٥٤/١٥ ، ومقومات الإسلام لشيخ الإسلام أحمد الطيب ، ص ٣٤-٣٥ .

لا يؤمن به ، فلزم أن نلجأ إلى أسلوب آخر لإقناعه ، فإذا هو اقتنع خاطبناه بمنطق الوحي ، على أنَّ القرآن الكريم قد استثار المسلم وغيره إلى إعمال العقل في آيات الوحي ، وفي الآيات الكونية ، وفي نفس الإنسان ، ومعنى ذلك أنَّ القرآن الكريم يستثمر القدرات العقلية في الإقناع بالعقائد الدينية ، من هنا كان ميلنا للجمع بين النقل والعقل في حديثنا عن عقيدة سادتنا أهل السنة والجماعة يمثِّلهم الأشاعرة والماتريدية .

• تنبيهٌ : (مهما تصورت ببالك فالله بخلاف ذلك)

قال الإمام أبو الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ في النوادر : «أول ما يجب على العبد العلم بالله وبرسوله ودينه» .

معرفه الله ليست على سبيل الإحاطة لأنَّـه لا يعلم الله على الحقيقة إلا الله ، وإذا كان الإنسان لا يحيط علمًا بحقيقة نفسه ، فكيف يحيط علمًا بحقيقة خالقه ، ومن هنا قال حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما : «تفكروا في مخلوقات الله ، ولا تفكروا في ذات الله أي حقيقه الله»[١] . فحقيقة الله لا يدركها الوهم لأنَّ الوهم يحكم على ما يراه بحكم ما رآه ، فلا يدرك إلا الأشياء التي ألفها ، أمَّا من ليس كمثله شيء فلا يدركه الوهم . قال الإمام ذو النون المصري رضي الله عنه : «مهما تصورت ببالك فالله بخلاف ذلك»[٢] . ومعنى ذلك : أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يشبه أي صورة خطرت على قلبك لأنَّـه ليس له صورة ، بل هو الله الخالق البارئ المصور الذي خلق الصورة ، فخالق الصور لا يكون صورة .

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات ، ص٣٦ .

(٢) رواه عنه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٠٤/١٧ .



وقال الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنه : «غاية المعرفة بالله الإيمان بوجوده بلا كيف ولا مكان» .

• ثانيًا : صفات الله :

يجب على كلِّ مكلفٍ معرفة ثلاث عشرة صفةً واجبةً لله ـ تعالى ـ أي أن يثبتها لله ـ تعالى ـ مع اعتقاد معانيها ، وهذه الصفات هي : الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والقيام بالنفس ، المخالفة للحوادث والوحدانية ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والحياة ، والكلام .

واصطلح بعض المتأخرين من علماء أهل السنة على تسمية الوجود صفةً نفسيةً ، والقدم ، والبقاء ، والقيام بالنفس ، والمخالفة للحوادث ، والوحدانية صفات سلبية ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والحياة ، والكلام صفات المعاني .

(١) **أمَّا صفة الوجود** فقد تحدثنا عنها بما يغني عن إعادة الكلام فيها ، فقد ثبت لك بالأدلة المختلفة السابقة وجود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وذلك هو الدليل على اتصافه بهذه الصفة .

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ موجود وجودًا أزليًا خارج حدود الزمان والمكان ، فكيف يزعم أحد المتسلفة أنَّ الأشاعرة ـ رضى الله عنهم ـ يقولون بأنَّ الله في كلِّ مكان .

والسؤال أين المصدر الذي قال فيه الأشاعرة ذلك ، والقاعدة العلمية تقول : (إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدعيًا فالدليل) ، والذي هو ثابت عن الأشاعرة في كل المصادر المعنية بذلك أنَّ المكان والزمان مخلوقان بقدرة الله ، فليس من المنطق القول بأنَّ الله يحتازه مكان أو زمان،فمن أصولهم أنـَّهم لا يعترفون بمكان أو زمان لله ، ثم يزعم هذا المتسلف أنَّ الأشاعرة لا يثبتون المكان لله ، ومن ثَمَّ فهم يعبدون عدمًا .

ونقول : هذا القول يكرُّ بالباطل على زعمه السابق ، هذا بالإضافة إلى أنَّ قول الأشاعرة بأنَّ الله يستحيل عليه الحلول في مكان ليس معناه أنَّ الله عدم إلا في ذهن هذا المدَّعِي .

والذي عليه الأشاعرة أنَّ الله هو الذى خلق المكان فلا تحق عليه المكانية؟!

ولو قلنا جدلاً بما يقول به متسلف العصر بأنَّ الله مكانه السماء ، ونحن متفقون معهم بأزلية الله (كان الله ولم يكن شيء غيره) ؛ فبناء على زعمهم يتحيز الله في مكان فأين كان الله قبل خلق المكان؟!

وقولهم : بأنَّ الله إذا لم يكن موجودًا في مكان فهو غير موجود مردودٌ عليه بأن نقول : هذا من قياس الغائب على الشاهد ، فهو يصدق على الموجودات التي خلقها الله ، أمَّا الله الموجد لكل الموجودات بما فيها الزمان والمكان فلا يصدق عليه ذلك ؛ إذ هو من قبل قيام الغائب على الشاهد .

ومن الثابت لدى أصحاب البصائر بعلم العقيدة أنَّ من وصف الله بمعاني البشر كفر .

والقول بأنَّ الله في السماء معناه أنَّه في جهة ، وهذا تحيز ، وإذا كان العلم الحديث قد قال ما هو مقتضى القرآن الكريم بأنَّ الأرض كروية ، وأنَّ السماوات السبع وما فوق العرش محيطة بالأرض ؛ فإنَّ معنى ذلك أنَّ الله في جوف الكون . وهذا قول بالحلول والتحيز .

والذي ليس فوقه شيء ولا تحته شيء فهو ليس في مكان ، وهذا ما قرره الإمام الطحاوي حيث قال : «لا تحويه الجهات كسائر المبتدعات ، فنسبة الجهة في المكان لله مخالفٌ للآية المحكمة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى:١١) ، كما أنَّه مخالفٌ لقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (العنكبوت:٦) ، والجهات والأمكنة من أجزاء العالم فوجب تعاليه واستغناؤه جل



شأنه عن العالمين ، وليت شعري كيف يوفقون بين قولهم بأنَّ الله في السماء وبين قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر:٦٧) ، وقد ثبت في الحديث أنَّه ﷺ قال : « يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ »[1] .

وأمَّا هرطقة المتسلفة في قوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) إنَّما معناه الملكية ، أو الاستيلاء التام ، أو أنَّه استوى على الوجه الذى أراد ، فله استواء يليق بكماله وجلاله نؤمن به بلا كيف ، فالله ـ تعالى ـ منزَّهٌ عن الكيف والحدود والأركان كذا قال الطحاوي ، وأمَّا المتسلفة فلا ينفون أصل الكيف بل ينفون العلم بالكيف والكيف ثابت ، فالأشاعرة لا ينفون استواء الله على العرش وحاشاهم فهو نصٌّ قرآني ، أمَّا الذي ينكرونه فهو ما زعمه بعض المتسلفة من أنَّه جلوس الله على العرش .

٢- القدم :

ونعني بالقدم أنَّه سبحانه وتعالى مطلقٌ لا أول لوجوده ، وأنَّ وجوده لا يسبقه عدمٌ ، فالوجود كله بما فيه ومن فيه حادثٌ أحدثه سبحانه وتعالى ، فعن أبي بن كعب أنَّ المشركين قالوا للنبي ﷺ : انسب لنا ربك ، فنزل : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١) ؛ لأنَّه ليس شيءٌ يولد إلا ويموت ، وليس شيءٌ يموت إلا سيورث ، إنَّ الله ـ تعالى ـ لا يموت ولا يورث ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:٤) . قال : لم يكن له شبيه ولا عديل ، وليس كمثله شيءٌ .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ بَابُ قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ (الزمر:٦٧) رقم (٤٨١٢) ، ومسلم في صحيحه ـ كتاب صفة القيامة الجنة والنار ـ رقم (٢٧٨٧) .

وتسلل الخطأ الجسيم على المشركين من خلال أنَّهم نظروا إلى الله بعقولهم المحدودة ، فقاسوا الله على البشر ، ولمَّا كان لكل واحد من البشر بداية هي ميلاده تصوروا أنَّ الله كذلك ، ولم يفطنوا إلى أنَّ أولية كلٍّ منَّا نسبية ، بينما أولية الله مطلقة ، فهو أزلي أبدي أي لا أول له ولا آخر له ، فهو الأول والآخر .

٣- البقاء :

ومعنى البقاء أنَّه سبحانه لا نهاية لوجوده ، فهو أزلي أبدي لا يسبقه عدم ، ولا يلحقه عدم لأنَّه تعالى واجب الوجود .

ومن أبدع ما قرأناه بهذا الصدد قول شيخ الدعاة محمد الغزالي - رحمه الله وأرضاه - : « والله - سبحانه وتعالى - باقٍ أبدًا ، إنَّه ليس جسمًا فيموت ، ولا مادة تحلل وتذوى ، إنَّه الدائم الذي يصير إليه كل شيء . ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٨٨) . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٨) .

فالأمر كما قلنا : إنَّ وجود الله - عزَّ وجلَّ - واجبٌ له من ذاته لا ينفك عنه أبدًا . أمَّا ما عداه فهو صفرٌ إن لم تدركه نعمة الوجود المُفاضِ عليه من الخالق - جلَّ علاه »[1] .

وذو الوجود الخالد المتأبِّي على الفناء قد يمنح للأخيار من عباده الخلود في جنات النعيم ، فهذا الفضل الممنوح لا يعني أنَّ بشرًا أصبح حقيقًا بوصف الباقي والآخر .

٤- المخالفة للحوادث : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١)

مما يجب أن نؤمن به أنَّ الله - تعالى - يخالف جميع من عداه في الذات والصفات والأفعال ، ومصدر ذلك أنَّ الله مطلقٌ في ذاته وصفاته وأفعاله ، بينما كل الموجودات نسبية ، ومن ثَمَّ تولدت فكرة أنَّه مخالف للحوادث .

---

(١) عقيدة المسلم ، ص ٣٣ .

وقد رسخ البيان القرآني هذه الحقيقة العقدية في مثل قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى:١١) .

وكلمة(شيء) تفيد عموم جميع الأشياء والكاف تشبيهية ، والمعنى نفي مثل المثل ولا مثل ، وتقديم التركيب (كمثله) وتأخير شيء إنَّما كان لأنَّ نفي المثلية أهم من العموم في كلمة شيء ، والعبارة الجامعة في هذا المعنى هي أنَّه : كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

فقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ أصرح الأدلة النقلية في تنزيه الله التنزيه الكلي ؛ لأنَّ الله ذكر كما قلنا في هذه الآية لفظة (شيء) في سياق النفي ، والقرار اللغوي والأصولي أنَّ النكرة إذا وردت في سياق النفي فهي للشمول والعموم ، فالله ـ تبارك وتعالى ـ أطلق نفي مماثلة شيء من الخلق له ، ولم يخص شيئًا دون شيءٍ .

فأهل السنة الأشاعرة يؤمنون من منظور أنَّ الله مطلق ، وأنَّه ليس كمثله شيء ، أي أنَّه لا يشبهه شيء في الذات ولا الصفات ولا الأفعال .

٥- قيامه تعالى بذاته : (الغنى المطلق)

وفي بيان هذه الصفة نحيلك إلى قلم شيخ الدعاة الإمام محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ حيث يقول : « الله ـ سبحانه وتعالى ـ واسع الغنى ، وليست سعة غناه راجعة إلى أنَّه يملك هذا العالم بسمواته وأرضه وما حوى من معادن نفيسة وعناصر غالية .

ولا لأنَّه يملك عددًا لا يحصى من الجن والإنس والملائكة . لا . لا .

فالغنى الإلهي أعظم من ذلك وأمجد!

إننا قد نعتبر الرجل غنيًّا ؛ لأنَّه يملك القناطير من الذهب والفضة ، أو لأنَّه يحكم الألوف المؤلفة من الناس ، فإذا فقد ذلك لم يصبح على شيءٍ من الغنى ؛



إذ انهارت الدعائم التي يقوم عليها ، وقد يكون الملكوت الواجب الذي نعرف أقله ونجهل أكثره مظهراً للغنى الإلهي العظيم ، لكنَّ الله - عزَّ وجلَّ - يستطيع أن يفني ذلك أجمع ، ولا ينقص غناه المطلق شيئًا البتة!! ويبقى قائمًا بنفسه ، مستغنيًا عن خلقه ، ومستكملاً نعوت قداسته ، ومستعليًا في أنوار جلالته ، إنَّ العرش فما دونه صفرٌ إلى جانب الذات العليا ، وتسبيح العباد من بدء الخلق إلى قيام الساعة ، أو لغو الفجار في هذا الأمد الطويل ، لا يُضفي ولا ينتقص من عظمة الحق شيئًا . وقد جاء في الحديث القدسي : « **يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا** »[1] .

المخلوقات جليلها ودقيقها تقوم بالله - عزَّ وجلَّ - ، أمَّا الله فقائمٌ بنفسه مستغنٍ بذاته عمَّا سواه »[2] .

٦- الوحدانية : (إنما الله إلهٌ واحدٌ)

أي أنـه تعالى واحد وحدةً مطلقةً ، ونعني بالوحدانية :

(أ) وحدة الذات ومعناها : نفي التركيب والتعدد عن الذات ، فذاته تعالى لا تتركب من أجزاء مثلما تتركب سائر الذوات ، وأيضًا ذاته لا تتعدد أي ليس لذاته شبيه .

(ب) وحدة الصفات ومعناها : نفي المشابهة بين صفات الله وصفات المخلوقين نفيًا تامًّا ، فمثلاً صفة العلم والقدرة تطلق على الله وعلى الإنسان ، فيقال : الله عالم ، كما يقال فلان عالم ، لكن يجب التنبه إلى أنَّ الاشتراك في لفظ عالم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم رقم (٢٥٧٧).

(٢) عقيدة المسلم ، ص ٤٨ .

اشتراك لفظي فقط ، أمَّا المعنى فلا مشابهة ولا اشتراك فيه ؛ فالعلم الإلهي مطلق وعام وشامل أزلي أبدي وكاشف للأشياء قبل وجودها ، بخلاف العلم البشري فإنَّه محدودٌ ، وقاصرٌ ، وقابلٌ للخلق ، ثم هو حادثٌ متغيرٌ ، يسبقه الجهل ، ويلحقه النقص .

(ج) وحدة الأفعال ومعناها : استقلال الله ـ تعالى ـ وتفرده بالخلق والإيجاد والإبداع .

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص:١-٤) .

وقال: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (النحل:٥١) . وقال : ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (النمل:٦٤) .

وقال : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون:٩١) .

هذه صفات سلبية خمسة ، وهي تلك الصفات التي تنفي عن الله معنى لا يليق بجلاله وكماله ، فهو الواحد والأول والآخر ، وليس كمثله شيء .

• الكمال الأعلى : (الصفات الثبوتية)

الصفات الثبوتية هي التي تثبت لله معنى من معاني الكمال ، وترجع هذه الصفات إلى صفات سبع (العلم ـ والإرادة ـ والقدرة ـ والسمع ـ والبصر ـ والحياة ـ والكلام) . هذا هو الموجز ، وإليك الأنباء بالتفصيل :-

١- صفة العلم :

ممَّا هو مقرر بما أثبتناه أنَّ الله مطلق في ذاته وصفاته ، ومن ثَمَّ يتوجب أن يرتفق في ذاكرة المؤمن هذه المطلقية وهو يتأمل أي صفةٍ من صفات الله ، أو يقرأ عنها .

ونحن هنا إذ نتحدث عن صفة العلم لله نقول: العقل الصريح يحكم بوجوب صفة العلم للخالق؛ لأنَّ الذى يخلق ويدبر لابد أن يكون عالمًا بخلقه وتدبيره.

وعلم الله - تعالى - محيطٌ بكل الأشياء والمعلومات الماضية والحاضرة والمستقبلة، فعلمه لا يقيده زمان، ولا يحده مكان، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٨٢).

وعلم الله علم حضوري أي علمٌ حاضرٌ أزلاً وأبدًا، بخلاف علم الإنسان فإنَّه علم حصولي يحصل بعد عدم، وينشأ بعد جهل بالمعلوم.

ومن خاصية العلم الإلهي أنَّـه صفةٌ كاشفةٌ للأمور المعلومة، ومحيطةٌ بها على ما هي عليه في واقع الأمر، أو على ما كانت عليه في الماضي، أو ما تكون عليه في المستقبل، وليس من خاصية العلم الإلـهي التأثير فـي الممكنات لا إيجادًا ولا إعدامًا[1].

قال فخر الدين بن عساكر: «فالله - عزَّ وجلَّ - عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا فـي السماء، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام:٥٩)

﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (الطلاق:١٢)، والمعنى: أنَّ الله - تعالى - كما ذكرنا من قبل يعلم الأشياء جملةً وتفصيلاً بعلمه الأزلي يعلم ما كان ممَّا وجد، وما سيكون ممَّا سيوجد، يعلم الواجب واجبًا، والجائز جائزًا، والمستحيل مستحيلاً.

وهو سبحانه وتعالى عالمٌ بذاته وصفاته، وبما يحدثه من مخلوقاته بعلمٍ واحدٍ أزليٍّ أبديٍّ لا يتغير.

---

(١) تهذيب الكلام مع شرحه تقريب المرام ١٣٥/٢ وما بعدها، ومقومات الإسلام لشيخ الإسلام أحمد الطيب، ص ٧٠، ٧١.

ومعنى قوله : ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (الطلاق:١٢) أنَّه سبحانه يعلم ما يوجد وما سيوجد بعلمه الأزلي ، وأنَّه سبحانه أحصى كل شيءٍ عددًا أي أنَّه عزَّ وجلَّ علم بعلمه الأزلي أعداد كل شيء ، علمه قبل أن يكون أي مخلوق من المخلوقين ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ (الجن:٢٨)» (١) .

٢- الإرادة : (فعال لما يريد)

ومعنى هذا أنَّه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء حصوله بمشيئته الأزلية ، وبفعله الأزلي ، ومشيئته أي إرادته ، فالمشيئة أو الإرادة هي تخصيص الممكن العقلي ببعض ما يجوز عليه دون بعض .

وقوله ﷺ : (ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن) معناه : ما شاء الله حصوله وجد في الوقت الذي شاء وجوده فيه ، وما لم يشأ وجوده لا يوجد أبدًا .

ولله در شيخنا محمد الغزالي ـ عليه من الله شآبيب الرحمة ـ حيث بلور هذه الصفة بقلمه البليغ فقال : « والله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما خلق وفيما يخلق ، وفيما دبر ويدبر به شئون العالم كان يصوغ الكائنات في الأوضاع التي يريدها ، ويضفي عليها الأوصاف التي يشاؤها ، ويبرزها في الأوقات التي يختارها ، لا يستكرهه أحد على شيء من ذلك كله .

وما ترى في الأرض والسماء من تنوع في الوجود ، وتميز في السمات ، هو مظهر الإرادة الحرة في تعلقاتها كافة .

فما أوجده الله في هذا العصر كان من حقه الكامل أن يوجده في الأيام الخالية ، وما جعله الله كوكبًا متألقًا كان يستطيع جعله جندلاً باردًا .

وتوزيع الصفات والأحجام والأحوال في أنحاء الكون العريض ليس إلا المشيئة العليا لله ـ عزَّ وجلَّ .

---

(١) رسالة ابن عساكر ، ص ٢٣ .

ولو أراد أن يخلق العالم الذي نعيش فيه على نحو آخر في قوانينه وأنظمته وأحيائه وأشيائه كلها لَفعَلَ.

وإنَّك لترى انطلاق المشيئة دون أي عائق في إخراجها الأصناف المختلفة من الأصل الواحد! فالحقول المتجاورة تختلف محصولاتها كمًّا وكيفًا!

والبذور المتجانسة تتفاوت فروعها حلاوة وحموضة ولونًا ووزنًا في النبات، ولؤمًا ونبلاً وذكاء وبلادة في الإنسان والحيوان.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد:٤).

وقديمًا استدل الأئمة على عظمة الإرادة - في هذا المعنى - بالنحل يأكل من الشجر فيحوله شهدًا، ويأكل منه الدود فيحوله حريرًا، وتأكل منه أطيار أخرى فتحولها قذرًا.

وإذا اتجهت الإرادة إلى شيء فيستحيل أن يتخلف أثرها. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (هود:١٠٧)، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢).

فإرادة الله نافذةٌ في السماء والأرض، لا راد لها ولا معقب عليها. ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ (القصص:٦٨).

وقد تطلق الإرادة على قصد الشيء بأسلوب سلبي، فأنت إذا خرجت من بيت يستطيع صاحبه منعك من الخروج منه ولكنه تركك، فهو بسكوته يريد خروجك.

وإلى هذا المعنى يشير المتنبي - لمَّا ترك سيف الدولة مغاضبًا - ثم قال مبررًا عمله، وملقيًا التبعة على صاحبه:

إذا ترحَّلت عن قومٍ وقد قدروا ... ألا تفارقهم؛ فالراحلون هموا.



ولعل ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٧٦) ، ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (آل عمران:١٧٨)» . اهـ[١] .

ومثل هذا ترك امرئ يمشي في طريق الضلالة ، ويهيم على وجهه ؛ لأنَّه حرم أسباب اللطف ، والله قادرٌ على سوقها إليه لو شاء!

٣- القدرة : (قادر على ما يشاء)

وجوهر الكلام في هذه الصفة أنَّ الله ـ تعالى ـ له قدرةٌ شاملةٌ يُحدث بها الأشياء ، فلا يعجزه شيءٌ ، ولا يحتاج إلى استعانةٍ بغيره ، ولا يلحق قدرته نقص ولا ضعف أو عجز ، بل قدرته تامة كما قال في بيانه القرآني : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات:٥٨) ، وقال : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٨٤).

والقدرة الإلهية تنفذ على حسب ما سبق في العلم الأزلي على الوجه الذي خصصته الإرادة الإلهية .

وفي هذا البيان يروقنا بعض ما قال الإمام الغزالي : «العالِم وما فيه من سكون وحركة أثرٌ لقدرة الله ـ تعالى ـ ، وليس لشيءٍ ما قدرةٌ ذاتيةٌ يستمدها من طبيعته المجردة» .

ثم يقول : «لا تحسبنَّ شيئًا في الكون قادرًا بنفسه .

فكما أنَّ القدرة أبدعته أولاً من عدمٍ ، فقد أودعت فيه من أسرارها ، وبثت فيه من آثارها ما يدل عليها .

---

(١) عقيدة المسلم ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

وبعض الجاحدين من علماء الطبيعة يردون ما يقع تحت أبصارهم من هذه الدلائل الباهرة إلى مجهول محض أو قوى كامنة في العناصر والمواد المختلفة ، وهذا تخريفٌ شائنٌ ، وتسفيهٌ للعقل ، ومغالطةٌ للواقع »[1] .

٤-٥- السمع والبصر

ولستُ أجد ما أقفي به على هذه النقطة ممَّا رآه شيخنا محمد الغزالي - رحمه الله - إذ يقول : « والله تعالى سميعٌ يسمع كل شيء حتى إنَّه يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء ، ولا تحسبنَّ الله حين يسمع نجوى جماعةٍ يشغله ذلك عن سماع قومٍ آخرين ، كلا ، فما يشغله شأن عن شأن ، وما تغيب عنه همسةٌ وسط الضجيج ، ولا تشتبه عليه لغة على اختلاف الألسنة . . . . وكما أنَّ الله يسمع كل شيء فهو يشهد كل شيء ، ورؤيته تنفذ في أعماق الظلمات فتستشف كوامنها ، فما هو بحاجةٍ إلى ضياء يبصر به الخفي ، أو مكبر يعظم به الدقيق »[2] .

والبيان القرآني يقول : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (المجادلة:١) ، ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ (العلق:١٤) ، ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (طه:٤٦) .

٦- الكلام :

وصف الله - تعالى - نفسه بأنَّـه تكلم ، فقال : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (النساء:١٦٤). وقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ (الأعراف:١٤٣).

---

(١) عقيدة المسلم ، ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩١ ، ٩٢ .



وقد ثبت الكلام لله ـ تعالى ـ بإجماع الأمة وتواتر النقل عن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام[1] .

وهنا وقفات :

الأولى : لله ـ تعالى ـ كلامٌ هو أمره ونهيه وإخباره ، ليس حرفًا ولا صوتًا ، ولم يأت دليل صحيح صريح يثبت الحرف والصوت لله ، وكلامه تعالى واحدٌ ليس متجزئًا ولا متبعِّضًا .

الثانية : كلامه سبحانه وتعالى قديم أزليٌّ ليس شيءٌ منه حادثًا ضرورة استحالة توارد الخواطر وطروء المعاني على الله .

الثالثة : القرآن والتوراة والإنجيل والكتب السماوية كلام الله ـ تعالى ـ ، وهذا القدر من صفة الكلام هو ما أجمع عليه المسلمون[2] .

وهذا القدر كافٍ في هذا المقام ، أمَّا حقيقة الكلام كصفةٍ لله فحسبنا قول شيخنا محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ إذ يقول : « فلا نقصر فيها ولا نطيل ، لأننا دون هذا المجال بكثير ، بيد أننا نجزم بأنَّ الكلام الإلهي ليس ألفاظًا تصنعها الشفتان واللسان ، وتضبطها الرئتان والحنجرة والأسنان ، فذاك شأن الإنسان لا وصف الرحمن »[3].

٧- الحياة :

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ (طه:١١١) ، ويقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٨).

---

(١) يُنظر : السعد على العقائد النسفية ، ص ١٤ .

(٢) يُنظر : كبرى اليقينيات ، ص ١٠٤ .

(٣) عقيدة المسلم ، ص ٩٤ .

وفي الحديث : «أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»[1] .

فالله - عزَّ وجلَّ - حيٌّ بحياةٍ أزليةٍ أبديةٍ ، ولو لم يكن متصفًا بالحياة لَمَا صحَّ اتصافه بالعلم والقدرة والمشيئة والسمع والبصر والكلام .

● صفات الله عين الكمال المطلق

من أصول العقيدة الإسلامية أنَّ ذات الله مطلقة فهي أزليـة بـلا أول ، وأبديـة بـلا آخر .

تلك حقيقة عقدية لابد أن يتعقد عليها قلب المؤمن وعقله ووعيه .

وقد اكتنزت هذه الحقيقة نصوص كثيرة من الوحي الشريف منها قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد:٣) فهو الأول الذي لا أول له ، ولا شيء قبله ، وهو الآخر الذي لا آخر له ، ولا شيء بعده .

إذا كان ذلك كذلك وهو بالقطع كذلك فإنَّ علينا أن نؤمن بأنَّ صفات الله مطلقة أزلية أبدية لأنَّـها كلها قائمة بذات الله .

الله مطلق ، فكل صفات الله كمالات مطلقـة غـير متناهيـة ، فهـي صـفات أزليـة أبدية .

وإذ قد ثبت لله - ضمن صفاته العلا - صفة (المخالفة للحوادث) ثبوتًا نقليًا وعقليًّا ، نود هنا أن نؤكد أنَّ ما هو من صفات الحوادث مما يتصل بصفات الجمال كالعلم والقدرة والسمع والبصر وما إلى ذلك ، كل ذلك في عالم الإنسان نسبي يتفاوت بين أفراد الإنسان ويتجدد ويتغير ويتطور ويذبل ، وقد يموت ، كل صفات الجمال في الإنسان كذلك .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الذكر والدعاء - بَابُ التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ ، رقم (٢٧١٧) .

أمَّا صفات الجمال الإلهي وصفات الكمال وصفات الجلال ، فهي جميعًا وكل ما يتصل بجلاله سبحانه مطلقٌ أزليٌّ أبديٌّ لا تفاوت فيه ولا تطور ، بل كل صفاته في منتهى ما يليق به منذ الأزل وفي الحال وحتى الأبد ، وهذا فرقٌ واضحٌ فانتبه له .

على أنَّ صفات الله ليست تلك التي ذكرناها فقط ، وإنَّما ثمت غيرها ، فكل أسماء الله الحسنى هي صفات منها ما هو كمالي ، ومنها ما هو جلالي ، ومنها ما هو جمالي إلا الاسم الكريم (الله) فهو علم على الذات الإلهية .

وممَّا يعجب ويروق ويعجز أيضًا أنَّه منذ مشرق الوجود الإلهي حتى الآن لم يتسم أحد بهذا الاسم الكريم ، وسبحان من يصرف القلوب والعقول عن ذلك .

وكما يوجد لله صفات غير تلك الثمانية والتسعون لكنَّها لا تتمتع بالفضيلة التي هي خصيصة لأسماء الله الحسنى المعروفة المتمثلة في أنَّ من حفظها وعمل بها ضُمنت له الجنة ، وقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (الروم:٢٧) معناه أنَّ لله الوصف الذي لا يشبه وصف غيره ، أمَّا اتفاق اللفظ فلا يعني اتفاق المعنى .

نصوص وفهوم

قلنا : إنَّ ثمت صفات هي لله ، وهي صفات للعباد في الوقت نفسه ، وحررنا تلك المسألة بأنَّ ما كان لله فهو مطلق ، وما كان لغير الله فهو نسبي .

ونمذجة لذلك هاك بعض ما يوضح ذلك :

١- قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:٥٤).

فالمكر الذي يوصف به الناس عبارة عن الخبث والمخادعة ، أمَّا ما يوصف به الله فهو الحسن المطلق في التدبير والحكمة البالغة .

٢- قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (البقرة:١٥) . والمعنى أنَّه سبحانه وتعالى يُجازيهم على استهزائهم ، ولا يجوز القياس في



أسماء الله ، إنَّما مدارها على الشرع والتوقيف ، ومعنى ذلك ما قاله الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه من أنَّه «لا يجوز تسمية الله إلا بما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة أو الإجماع»[1] .

ويكفي في الزجر عن تسمية الله بما لم يرد في الوحي الأمر والنهي في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٠) .

٣- قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾ (الجاثية:٣٤).
فقد ذكر على وجه المقابلة ، ومعناه تركناكم من رحمتنا كما أنتم تركتم طاعة الله في الدنيا بالإيمان به .

٤- قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (البقرة:٢٦) . ومعناه أنَّ الله لا يحب ترك إظهار الحق فلا يتركه للاستحياء كما يفعل الخلق .

وكذلك لا يجوز أن يستخرج اسم المستحيي لله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الحديث الذي رواه الترمذي : «إنَّ الله حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين» . معناه لا يخيب إمَّا أن يعطيه معه الثواب ، أو يعطيه معه ما طلب ، ومعنى رفعهما إليه أي إلى أي جهة مهبط الرحمة وهي السماء .

واعلم أنَّ العلماء يقولون نؤمن بإثبات ما ورد في القرآن الكريم والحديث الصحيح كالوجه واليد والعين والرضا والغضب وغيرها على أنَّها صفات يعلمها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا على أنَّها جوارح وانفعالات كأيدينا ووجوهنا وعيوننا وغضبنا؛ فإنَّ الجوارح مستحيلة على الله لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى:١١) ، وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص:٤) .

---

(١) مجرد مقالات الأشعري ، ص ٤٢ .



وبيان ذلك أنَّه يصح أن يقال لله يد لا كأيدينا ، ووجه لا كوجوهنا ، وعين لا كأعيننا على معنى الصفة لا على معنى الجارحة والجسمية ، ولا يصح في معتقد أهل السنة ـ الأشاعرة والماتريدية ـ أن يقال : الله جالس لا كجلوسنا ؛ لأنَّ ذلك لم يرد لا في القرآن الكريم ولا في الحديث النبوي الشريف ولا عن الأئمة .

قال أهل السنة ـ الأشاعرة والماتريدية ـ : ما أطلق الله على نفسه أطلقناه عليه وما لا فلا . وقال المحققون من العلماء : لا تثبت الصفة لله إلا بالقرآن الكريم أو الحديث الثابت المتفق عليه ، أمَّا الحديث الذي في بعض رواته طعن وجرح فلا يحتج به بإثبات الصفة لله ، وكذلك لا تثبت الصفة لله بكلام صحابي أو تابعي .

اختلاط في الأوراق :

بين يدي بحث هذه المسألة لابد من كلمات تصور مشكلة المسألة عند المتسلفة ، وتبين الفكر المتسق في تنزيه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عند السادة الأشاعرة ؛ ذلك بأنَّهم يثيرون سؤالاً فحواه أنَّ الأشاعرة يكيلون في مسألة صفات الله بمكيالين ، فهم ـ الأشاعرة ـ في نظرهم يثبتون صفات المعاني (العلم ـ الإرادة ـ القدرة ـ السمع ـ البصر ـ الكلام ـ الحياة) بلا تأويل بينما هم في الصفات الخبرية (اليد ـ الوجه ـ العين) لا يثبتونها إلا بالتأويل .

وهذا لا يعني إلا التفاوت في المكاييل ، وهذا التفاوت في نظرهم يثمر نتائج فاسدة وأحكامًا مغلوطة .

والحق أنَّ الأشاعرة يرون فروقًا بين صفات المعاني والصفات الخبرية ، فصفات المعاني صفات عقلية أي يقطع العقل بثبوتها ككونه سبحانه حيًّا قادرًا عالمًا مريدًا فقد ثبت بدلائل العقل القطعية التي يكفر منكرها ، ومن ثمَّ لا يمكن أن يقبل العقل مثلاً أن يخلو خالق العالم من أن يكون قادرًا ، فالعاجز ليس بإله أصلاً ، وقل مثل ذلك في الحي والعليم والمريد ونحوها من صفات المعاني ،

فطريق إثبات هذه الصفات هو العقل والوحي معًا ، ولو لم يرد الوحي بوصف خالق العالم بأنَّه قادر لكانت آثار قدرته قاضية بوصفه بذلك ، ولو لم يرد وصفه سبحانه بالعلم لكانت آثار علمه قاضية بوصفه بذلك ، وهكذا دواليك في بقية الصفات العقلية (صفات المعاني) .

هذا بخلاف الصفات الخبرية (الوجه واليد والعين) فأدلتها منها ما هو قطعي الورود ظني الدلالة ، ومنها ما هو ظني الورود والدلالة معًا ؛ ولذا فلا يكفر منكرها .

وعليه فمن أثبت النصوص ونفى أن تكون اليد والساق والرجل على ظواهرها كالنووي والبيهقي وابن حجر وغيرهم ، لا يلزم أن يكون مخطئًا فضلاً عن أن يكون كافرًا بآيات الله ، بخلاف من ينفي عن الرب ـ سبحانه ـ القدرة والعلم والسمع والبصر والكلام والحياة فإنَّه يكفر .

فالطرفان المتنازعان في أمر الصفات الخبرية اتفقوا على أنَّ اليد والوجه والعين ونحوها لا تدرك بالعقل ، وإنَّما جاء بها الوحي ، فأثبت أهل السنة ـ الأشاعرة والماتريدية ـ هذه الصفات ، وقالوا في معناها : إنَّ النظر العقلي يقطع بكون اليد يستحيل أن تكون بمعنى الجارحة والعضو والبعض لأنَّ العقل يقضي بأنَّ الجارحة صفة المخلوق يستعين بها على أداء عمله كما يريد ، فاليد جاءت لتكمل نقصًا ذاتيًّا في المخلوق فهي دليل الافتقار والضعف والتركيب في الذات ، وهذا أمارة الحدوث لافتقاره إلى المركب أو المخصص .

فإن قال القائل : إنَّ اليد ليست هي العضو المعروف في المخلوق ، ولكنَّها يد تليق بالله .

قلنا : إنَّ العقل الذي خاطبه الله لا يعرف غير هذه اليد بمعناها المعروف في المخلوق ، أمَّا اليد التي تقولون عنها تليق بذات الله فإن كانت تفيد التركيب فعلى أي صفة كانت فهي لا تليق بالله .

فمن اعتقد أنَّ اليد والوجه والعين المنسوبة إلى الله في كتابه تفسر بمعناها الحقيقي الظاهر المتبادر إلى الأذهان وحصل الاختلاف في كيفياتها فقط فهو مشبه ، ونسي هؤلاء أنَّ اليد عندما نسبت إلى الإنسان نسبت إليه من حيث إنَّها جسم وبعض وعضو ، فالخلاف بيننا وبينكم في هذه الصفات أنَّها عندنا صفات إضافية ، وعندكم أعيان قائمة بذاتها ، ومَنْ أراد المزيد في بيان الفروق فليعد إلى المطولات .

وممَّا ينبغي التنبيه عليه في المقام أنَّ الصفات المعنوية ليس في إثباتها إيهام نقصٍ ، وليس فيها معان لغوية يمتنع اتصاف الباري بها ، بل هي صفات مقتضى ذاته ـ تعالى ـ ومقتضى أُلوهيته وربوبيته من صفات العظمة والكمال والجلال ، كالعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام والحياة .

وهذه الصفات يجب إثباتها لله بالمعنى اللغوي لدلالتها على وجه الكمال ، والفرق بين إثباتها لله وإثباتها لغيره من المخلوقات أنَّها بالنسبة لله تثبت على وجه الكمال ، وبالنسبة لغيره تثبت لا على وجه الكمال .

فهذا النوع من الصفات ينفي عنها مماثلتها لصفات المخلوقين لكن من جهة الكيف لا من جهة الأصل ، ومستند نفي مماثلته ـ تعالى ـ للحوادث قوله جلَّ شأنه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) .

ومن هذا البيان يظهر لنا أنَّه يُقال لله ـ تعالى ـ علم ليس كعلمنا ، وقدرة ليست كقدرتنا إلى غير ذلك من الصفات المعنوية ، ولا يصحُّ أن يُقال كما يدَّعي الجهلة المجسمة : لله نسيان ليس كنسياننا ، ولا مرض ليس كمرضنا ؛ لأنَّ المرض منفيٌّ عن الله رأسًا ، وكذلك النسيان ، ألم يقل البيان القرآني : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مريم:٦٤) [1] .

---

(١) يُنظر : منهج الأشاعرة في العقيدة بين الحقائق والأوهام ، لمحمد صالح الفرس ، ص ٨٠ وما بعدها .

مسألةٌ :

قد يرد سؤالٌ فحواه : هل يصحُّ أن نقول : لله يدٌ ليست كأيدينا ، وجنبٌ ليس كجنبنا ، وأصبع ليس كأصبعنا ، ووجهٌ ليس كوجوهنا؟

وهل يصحُّ أن نقول : لله غضبٌ ليست كغضبنا ، ورحمةٌ ليست كرحمتنا ، وحبٌّ ليس كحبنا ، ورضا ليس كرضانا؟

والجواب : أنَّ الأول لا يصحُّ ، أمَّا الثاني فهو يصحُّ ؛ ذلك لأنَّ الأول فيه إثباتٌ لجزءٍ هو من ذات الله كاليد والجنب والأصبع والوجه ، أمَّا الثاني فليس الحديث فيه ماسًّا لذات الله ، وإنَّما هي عباراتٌ تعود إلى صفةٍ من صفات الله ، وهي الإرادة أو صفة الفعل كما ذكرنا آنفًا ؛ إذ إنَّك في الأول حيث تقول : له يد ، له أصبع قد أثبت له صفةً من صفات الحوادث وهي منفيةٌ بقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) . أمَّا حين تقول : له رحمةٌ ليست كرحمتنا فأنت كمن يقول : له علم ليس كعلمنا ؛ لأنَّ صفة العلم ليست من الذات ، وإنَّما هي صفةٌ ثابتةٌ للذات ، واليد والأصبع أجزاء من الذات . **هذا أولاً .**

أمَّا ثانيًا : فنحن نجد في البيان القرآني إسناد الرحمة والرضا والغضب والحب والكراهية إسنادًا على صفة الفاعلية والمفعولية والمبتدائية والخبرية لله ـ سبحانه ـ إسنادًا حقيقيًا ، كما في قوله : ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ (البينة:٨) ، وقوله : ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ (النساء:٩٣) .

في حين أنـّنا لا نجد إسناد اليد والجنب والأصبع ، وما كان من الذات إلى الله على نفس المستوى ، بل هي من باب الإضافة والنسبة فقط ، كما في قوله : ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ (الملك:١) ، وقوله : ﴿ جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر:٥٦) ، وقوله : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ

أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح:١٠) ، وقول النبي ﷺ : « **إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ** »[1] ، وغير ذلك .

وأمَّا ثالثًا : فالرحمة والغضب والرضا ونحو ذلك جاءت في كلام الله وكلام رسوله على وجه الإثبات لله ، وأمَّا اليد والجنب والرجل والأصبع فلم تُسق بطريق الإثبات لله ، بل سيقت بطريق إثبات أمرٍ آخر لله ، فقوله تعالى : ﴿ **بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ** ﴾ (الملك:١) سيق لإثبات المملوكية والسلطنة المطلقة لله لا لإثبات اليد ؛ إذ هي منفية أصلاً لكونها من صفات الحوادث ، ولكونها تقتضي التركيب في الذات الأقدس .

وقوله : ﴿ **يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ** ﴾ (الزمر:٥٦) سيق أصلاً لإثبات الحسرة على التفريط في جنب الله لا لإثبات الجنب لله .

وقول النبي ﷺ :« **إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ** » سيق لبيان أنَّ قلب الإنسان طوع إرادته تعالى يقلبه كيف يشاء ، ولم يُسق الحديث لإثبات الأصابع لله .

وننتهي من هذه النقطة ببيان ما يقوله الشريف الرضي في كتابه (المجازات النبوية) تعليقًا على هذا الحديث : « فأمَّا ما تذهب إليه المشبهة من أنَّ الأصابع هنا على حقيقتها فهو من الجهالات التي تدفعها العقول بأوائلها وتقضي بفسادها قبل إعمال النظر فيها ، وكيف يصحُّ هذا القول لهم ويقوم في عقولهم مع اعتقادهم أنَّ الله مستوٍ على العرش ... وأنَّ بينه وبين المخلوقين من بني آدم سبع سماوات ، وما بين كلِّ سماءٍ وسماءٍ مسيرة خمسمائة سنة ، وسمك كلِّ سماءٍ مثل ذلك .

فكيف يسوغ أن تكون أصابع - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - واصلة إلى قلوب الخلق مع هذا البعد العظيم ، والمدى الطويل ، ولو كان ذلك على حقيقته

(١) صحيح مسلم - كتاب القدر - باب تصريف الله - تعالى - القلوب كيف شاء (٢٦٥٤) .

لوجب أن يكون لله من الأصابع ما لا نهاية له حتى يختص كلّ عبد من عبيده بأصبعين من أصابعه ، هذا لعمر الحقّ الظنُّ الفاسد والقول المتكاذب» . اهـ[1] .

● ثالثًا : الجائز في حق الله ، ومسائل خالف فيها المبتدعة :

هنا وقفات :

● الأولى : يجب لله ـ تعالى ـ كل كمال يليق بذاته المقدسة ، ويستحيل عليه سبحانه كل نقص لا يليق بذاته المقدسة .

أمَّا ما يجوز في حقه تعالى ، فهو فعل كل ممكن وتركه ، والدليل على ذلك كثيرٌ في القرآن الكريم ، منه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٠) .

والدليل على ذلك عقلاً أنَّ الله قادرٌ قدرةً مطلقةً ، وعالمٌ علمًا محيطًا ، وأنَّ كل ممكن يجوز فعله وتركه مهما كان ، فكل شيءٍ ممكن يجوز أن يفعله وألا يفعله .

● الثانية : الخير والشر من خلق الله ، وخلق الشر ليس قبيحًا من الله ، وما نراه شرًا إنَّما نحكم عليه من خلال نظرتنا نحن ، لكنه مخلوق بعلم الله وحكمته التي كثيرًا ما تخفى علينا ، ولا نلتفت نحن أهل السنة والجماعة إلى ما تزعمه بعض الفرق المبتدعة من أنَّ الشر قبيح ، ومن ثَمَّ لا يكون مخلوقًا لله .

● الثالثة : فعل الصلاح والأصلح مذهب أهل السنة أنَّه إذا كان هناك أمران أحدهما صلاح والآخر أصلح ؛ فإنَّ الله ـ تعالى ـ لا يجب عليه فعل الأصلح ، وإنَّما هو فعال لما يريد خلافًا لبعض الفرق التي ترى أنَّه يجب عليه ترك الصلاح وفعل الأصلح ، وهذا قول المعتزلة .

---

(١) المجازات النبوية ، ص ٣٤٩ .

ومن الإفك أن يزعم أحد كبار المتسلفة الجدد إلفاقه بأهل السنة (الأشاعرة) ، وهذا ممَّا يعرفه طلاب المرحلة الإعدادية الأزهرية ، فمن المتون التي حفظناها ونحن في تلك المرحلة قول صاحب الخريدة :

ومن يقل فعل الصلاح وجبا على الإله قد أساء الأدبا

● **الرابعة : إثابة المطيع وتعذيبه** وفي هذه النقطة نحيلك إلى قلم حضرة الأستاذ العلامة الشيخ حسين أفندي الجسر إذ يقول : « ومن الجائز في حقه تعالى عقلاً أن يعذب المطيع وينعم العاصي ، ولا يقبح ذلك منه ؛ لأنَّه مالك مطلق ، فاعل مختار ، ولأنَّه إن أثابنا فبفضله ، وإن عذبنا فبعدله ، ولا تأثير للطاعة في وجوب الثواب ، ولا تأثير للمعصية في وجوب العذاب ، لكن لمًّا ورد في نصوص الشريعة المحمدية وعده سبحانه وتعالى للمطيع بالثواب ، ووعيده للعاصي بالعقاب صار واجبًا شرعًا ألا يتخلف وعده ولا وعيده ؛ لأنَّه لو تخلف ذلك لزم الكذب والخلف في خبره تعالى ؛ وذلك محال ، لكنَّ الوعد بالثواب يجب شرعًا ألا يتخلف في حق أحدٍ من المطيعين لأنَّه نقص ، والنقص عليه تعالى محال .

وأمَّا الوعيد بالعقاب فقد أخرج منه المؤمنون المغفور لهم بالدلائل الدالة على أنَّ الله ـ تعالى ـ قد يغفر لبعض عباده الذنوب ، وأمَّا الكفار فلا يتخلف الوعيد في حقهم للأدلة الشرعية الدالة على تحتم خلودهم في النار .

وأمَّا المؤمنون المغفور لهم معاصيهم فلابد من نفوذ الوعيد في حقهم ولو بتعذيب واحد منهم لئلا يلزم الخلف في خبره تعالى» . اهـ[1] .

(١) الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية للأستاذ حسين أفندي الجسر ، ص٤٤.

● **الخامسة : رؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا والآخرة** للعلماء في ذلك عبارات منهم المفصل ، ومنهم المجمل ، ومن أوجز وأدق ما وقفنا عليه في ذلك ما قاله الأستاذ الجسر ، قال : « ومن الجائز عليه تعالى عقلاً أن يُنظر بالأبصار لأنَّه سبحانه وتعالى موجود ، وكل موجود يصح أن يُرى ، وهو سبحانه يصح أن يُرى ، لكن لم تقع رؤيته تعالى في الدنيا لغير نبينا ﷺ على خلاف في ذلك .

ورؤيته تعالى في الآخرة للمؤمنين واجبة شرعًا باتفاق أهل السنة والجماعة لنص القرآن ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ (القيامة:٢٢-٢٣) ، والأحاديث الشريفة ومنها : « **إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ ، لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[1] .

ولإجماع الصحابة عليها ، لكن رؤيته تعالى بلا كيفٍ ولا انحصارٍ .

ومعنى قولنا (بلا كيفٍ) أنَّها بدون تكييفية سبحانه بكيفيةٍ من كيفيات الحوادث من نحو المقابلة للرائي ، والجهة ، والتحيز ؛ لأنَّ الرؤية قوة إدراكية يجعلها الله ـ تعالى ـ في خلقه لا يشترط فيها عقلاً مقابلة المرئي ، ولا كونه في جهةٍ وحيزٍ ولا غير ذلك ، وإنَّما جُعلت هذه شروطًا عادية يجوز أن يخلق الله ـ تعالى ـ الرؤية بدونها .

ومعنى قولنا (بلا انحصارٍ) أي بدون انحصاره تعالى عند الرائي بحيث يحيط به لاستحالة الحدود والنهايات له تعالى .

ولا تخالف بين وجوب رؤية المؤمنين له تعالى وبين قوله في القرآن الشريف : ﴿ **لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴾ (الأنعام:١٠٣) ؛

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير رقم الحديث (٧٤٣٤) ، ومسلم في صحيحه ـ كتاب المساجد رقم الحديث (٦٣٣) .

لأنَّ معنى إدراكَ الأبصار : رؤيتها على وجه الإحاطة بحيث يكون المرئي متحيزًا بحدود ونهايات ، وهذا لا نقول به ؛ لأنَّه محال عليه تعالى .

وقد خالف في جواز رؤيته تعالى بعض المبتدعة ، وتمسكوا بشبهٍ مردودةٍ عليهم في الكتب المطولة» . اهـ[1] .

● **السادسة : إرسال الرسل** ومما يلفت النظر فيما سطر قلم الأستاذ الجسر ـ كذلك ـ حديثه عن إرسال الرسل إذ يقول : «ومن الجائز عليه تعالى إرسال الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ للخلق ، فليس إرسالهم واجبًا عليه تعالى ولا مستحيلاً ، بل لطفٌ منه تعالى وإحسان ورحمةٌ بمحض الفضل ؛ لما في إرسالهم من الحكم والمصالح التي لا تُحصى :

منها : استفادة الحكم فيما لا يستقل به العقل مثل المعاد الجسماني والحساب .

ومنها : بيان حال الأفعال التي تستحسن تارةً ، وتقبح أُخرى من غير هذا العقل إلى مواقعها .

ومنها : تكميل النفوس البشرية بحسب استعداداتهم المختلفة في العلميات والعمليات .

ومنها : بيان الضروريات والحاجيات التي تنزل منزلة الضرورة فيما لا غنى للخلق عنها .

ومنها : تعليمهم الأخلاق الفاضلة الراجعة إلى الأشخاص ، والسياسات الكاملة العائدة إلى الجماعات .

---

(1) الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية للأستاذ حسين أفندي الجسر ، ص٤٥.

ومنها : الأخبار بتفاصيل ثواب المطيع وعقاب العاصي ترغيبًا في الحسنات ، وتحذيراً عن السيئات إلى غير ذلك من العوائد .

ثم بعد اعتقادنا بجواز إرسالهم في حق الله ـ تعالى ـ ، وأنَّه ليس بواجبٍ عليه ، يجب علينا اعتقاد حصول إرسالهم من لدن آدم إلى رسولنا محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين» . اهـ[1] .

● **السابعة : قضاء الله وقدره** تتفرع ضرورة الإيمان بالقضاء والقدر من دليلين اثنين :

أولهما : الحديث الصحيح الذي رواه مسلم « **الْإِيمَانُ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** »[2].

ثانيهما : ما سبق من بيان أنَّ الله ـ تعالى ـ متصفٌ بالعلم والقدرة والإرادة ، فالقضاء فرعٌ عن ثبوت صفة العلم والإرادة لله ، والقدر فرعٌ عن ثبوت صفة القدرة له تعالى .

والقضاء هو عبارة عن وجود الأشياء على الوجه الأكمل في علمه تعالى الأزلي على وجهٍ كليٍّ .

والقدر : إيجاد الأشياء في عالم الظهور على وجهٍ تفصيليٍّ يُوافق القضاء السابق.

والإيمان بالقدر مكوِّنٌ رئيس من مكونات الإيمان على ما جاء به القرآن الكريم وصحيح السنة ، وفي معنى الإيمان بالقدر يُحدِّثنا الإمام الأكبر حفظه الله فيقول :

---

(١) الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية للأستاذ حسين أفندي الجسر ، ص٤٦ بتصرف .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ بَابُ معرفة الْإِيمَانِ ، وَالْإِسْلَامِ ، والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ رقم الحديث (٨) .

«ومعنى الإيمان بالقدر عند أهل السنة :

(أ) الاعتقاد بأنَّ الله ـ تعالى ـ عالم أزلاً بجميع خلقه وجميع أفعالهم وأحوالهم من طاعات ومعاص وأرزاق ، وآجال وسعادة وشقاء .

(ب) الاعتقاد بأنَّ الله ـ تعالى ـ سجل ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ منذ الأزل ، ويترتب على هذا الاعتقاد أنَّ ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

(ج) الاعتقاد بعموم مشيئته تعالى لجميع الأشياء ، وأنَّ ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنَّ لا يقع في ملكه شيءٌ لم يرده الله ـ تعالى ـ ، وأنَّ أفعال العباد حاصلةٌ بهذه المشيئة .

(د) الاعتقاد بأنَّ جميع الأشياء واقعةٌ بقدرة الله ـ تعالى ـ ، وأنَّها مخلوقةٌ له ، لا خالق لها سواه ، لا فرق في ذلك بين أفعال العباد وغيرها ، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات:٩٦)» . اهـ[١] .

قيل : إنَّ ما سبق في العلم الإلهي لابد منه ، ويستحيل نقيضه ، فإذا الأشياء مرسومة مقررة قبل أن يوجد الإنسان فهو إذًا مقهور لا مختار .

ومن الغريب أنَّ الإمام فخر الدين الرازي كثيرًا ما يذكر ذلك في إلزام المعتزلة بالجبر وإسقاط الاختيار ، مع أنَّ هذا غلطٌ واضحٌ لا أدري كيف وقع فيه الإمام الرازي وغيره من الأعلام ؛ ذلك أنَّ العلم لا علاقة له بالجبر والاختيار ؛ فالعلم ليس من صفات التأثير ، وتخلف المعلوم أو عدم تخلفه ليس مبنيًا على كون العلم مؤثرًا بل على كونه صحيحًا أو غير صحيحٍ ، وهذا من أظهر الظاهر وأوضح الواضح ؛ فإنَّ من الجلي أنَّ العلم لا أثر له في المعلوم ، وأنَّ المعلوم يوجد بأسبابهن وسلسلة علله ، لا بعلم العالم أو جهل الجاهل»[٢] .

---

(١) مقومات الإسلام ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) ينظر : فتاوى الشيخ الدجوي ٥٤/١ .



إذا علمت هذا فاعلم أنَّ الله ـ تعالى ـ قبل أن يخلق الإنسان يعلم أنَّه سيكون مريدًا مختارًا ؛ لأنَّك إنسان لا جماد ، بل الحيوان الأعجم له إرادة واختيار أيضًا ، ويعلم سبحانه بالضرورة ما تختاره بمحض إرادتك ، وما ستصرف إليه عزمك من خيرٍ أو شرٍّ ، وقد اقتضت حكمته أن يهبك تلك الإرادة الحرة التي تصرفها كما تشاء ، كما يحقق لك الحرية التي اقتضت حكمته أن يمنحك إياها ، ثم يجزيك بعد ذلك على ما كان منك ، ولولا ذلك لم يكن هناك معنى للحرية والاختيار ، ولا للتكليف والثواب والعقاب .

ولسنا ننكر أنَّه لو شاء لسلبك تلك الإرادة ، ولو أراد لجعلك آلةً صمَّاء لا إرادة لك ولا تكليف عليك ، ولكنه لم يفعل ؛ لأنَّه يريد أن يجعلك إنسانًا ، فأي جبرٍ يقتضيه القضاء بعد ذلك ، وإن كان لابد من حصول ما سبق به القضاء ولا يتأتى تخلفه ، ولكن ذلك مبنيٌّ على صحة العلم لا على تأثيره كما قلنا .

وفي البيان القرآني ما ينوه بحرية الإرادة الإنسانية ، قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف:٢٩)، وقال : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس:١٠٨).

فموقف العلم الإلهي من أعمال الإنسان هو الإحاطة التامة والشمول الكامل ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (طه:٥٢) .

وهنا مغالطات :

الأولى : إنَّ العلم بالأشياء يوجبها بطريق الجبر لا بطريق الاختيار .

ولسنا ندري كيف يفهم ذلك مع أنَّ العلم لم يتعلق بفعلك إلا على وجه الاختيار منك ، فهو إذًا يؤكد الاختيار ولا يعارضه .



ومثال ذلك : قف أمام مرآةٍ مجلوةٍ صافيةٍ وأنت عابث الوجه مقطب الجبين ، فماذا ترى؟ سترى صورتك كما هي عابثة مقطبة ، أي ذنبٍ للمرآة في ذلك؟! إنَّ مهمتها أن تصف وأن تكشف ، وهي قد صدقت فيما أثبتت لك ، ولو كنت ضاحك الوجه لأثبتت لك على صفحتها خيالاً ضاحكًا لا شك فيه .

كذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ صفحات العلم الإلهي ومرائيه لا تتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك ، ولكنَّه اتصال انكشاف ووضوح ، غاية ما يمتاز به العلم أنَّه لا يكشف الحاضر فقط ، ولكنَّه يكشف ـ كذلك ـ الماضي والمستقبل ، فيرى الأشياء على ما كانت عليه وعلى ما ستكون عليه ، كما يراها وهي كائنة سواء بسواء»[1] .

الثانية : إخراج الإرادة الإنسانية من سلسلة الأسباب ، وجعلها لغواً في البين ، وقد اختصرنا لك الطريق ، وأهدينا لك لبب التحقيق .

الثالثة : فهم البعض أنَّ الله ـ تعالى ـ هو الذي يضل وهو الذي يهدي ولا دخل لإرادة الإنسان .

ونقول : إنَّ جوهر قوله : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ (الرعد:٢٧) لا يعدو قوله : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (البقرة:٢٦-٢٧)، وكذلك الحال في قوله : ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (إبراهيم:٤) فإنَّه لا يعدو قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (الرعد:٢٧)، فهو سبحانه يهدي إليه من أناب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (المنافقون:٦) .

---

(١) يُنظر : عقيدة المسلم ، ص ١٠٣ بتصرفٍ واختصارٍ . .



إنَّ معنى إضلال لشخص ما معناه أنَّ هذا الشخص هو الذي آثر الغي على الرشاد، فأقره الله على مراده، وتمَّم له ما يبغي لنفسه ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (الصف:٥)، وتأمل قيمة التنويه بالاتجاه البشري المعتاد في قوله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء:١١٥).

هل بقي بعد ذلك غموض في عقل عاقل في إطلاق المشيئة؟ الجواب: لا.

يقول شيخنا محمد الغزالي - رحمه الله -: «اجعل - أيها القارئ - هذا المصباح بين يديك، وسر في نوره بين شتى الصور، فلن تجد في دين الله قلقًا أو اضطرابًا، وإنَّما القلق والاضطراب في عقول الحمقى وقلوب الغافلين». اهـ[(١)].

الرابعة: نسمع بين الحين والآخر بعض العصاة من المتبجحين المخرفين قولهم: لو شاء الله ما عصينا.

وقريبٌ من ثرثرة هؤلاء المتبجحين قول المشركين قديمًا في الاعتذار عن ضلالهم: ولو شاء الله فعل بنا غير ذلك، وقد زيف القرآن هذه الأباطيل في غير موضع من آياته البينات، فقال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام:١٤٨).

تأمل كيف رفض القرآن هذه المكابرة الآثمة إذ لا يلتفت للرد عليها حتى لا يكون نقاشها نوعًا من الاعتراف بها ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النحل:٣٥).

* * *

---

(١) عقيدة المسلم، ص ١٠٦.



النبوات

•أولاً : النبوة ضرورةٌ ورحمةٌ من الله بالإنسان :

إنَّ النبوة ـ باعتبارها هديًا إلهيًا ـ هي الصيغة الوحيدة القادرة على إيجاد التوازن بين الفرد بكل نوازعه وغرائزه وشهواته من ناحيةٍ ، وبين المجتمع بكلِّ مصالحه وضروراته من ناحية أُخرى ، وهي القادرة على سدِّ هذه الثغرة التي كانت مبعث آلام الإنسانية وعذاباتها على مدى تاريخها الطويل .

والنبوة هي المصدر الوحيد الذي يبين للإنسانية معنى السعادة في حياتها القصيرة على الأمد على هذا الكوكب ، ومعنى السعادة في حياتها اللانهائية في الدار الآخرة ، وكذلك هي المصدر الوحيد الذي يمد الإنسانية بأصدق الحقائق عن حياة الإنسان ومصيره ، وعن حقيقة الكون ونشأته ومآله ، وعن معنى الخير والشر ، ولا يزال الإنسان ـ برغم تقدم معارفه وتطور علومه ـ عاجزًا عجزًا تامًا عن كشف لغز الحياة وسر الوجود ، ولا يزال الوحي أو النبوة المعين الأوحد الذي يتلقى منه الإنسان إجابات صحيحة عن هذه المسائل الكبرى[1] .

• ثانيًا : النبي والرسول

النبي في اللغة مأخوذٌ من النبأ الذي هو الخبر ، ومعناه : تلقي النبي خبرًا من الله ـ تعالى ـ عن طريق الوحي ، وتبليغه إلى الناس ، ومن ثَمَّ يكون النبي بمعنى المنبىء أي المخبر عن الله ـ تعالى ـ ، أو مأخوذ من النبوة التي هي الرفعة ، يُقال نبا الشيء إذا ارتفع ، فالنبي على هذا هو الرفيع المنزلة عند الله ـ تعالى .

---

(١) يُنظر : الإسلام يتحدى لوحيد خان ، ص ١٥٤ وما بعدها ، ومقومات الإسلام لفضيلة الإمام الأكبر ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

أمَّا الرسول فهو الذي تتابع عليه الوحي من رسْل اللبن إذا تتابع درُّه ، فالرسالة تتعلق بمعنى الإرسال والبعث ، والنبوة تعبيرٌ عن العلاقة بين النبي وبين مَنْ يُرسل إليهم . **أمَّا في اصطلاح علماء العقيدة** فالخلاف قائم بينهم حول تحديد العلاقة بين لفظ النبي ولفظ الرسول ، وللمحققين هنا منزع دقيق في بيان الفرق بينهما ، وهو أنَّ النبي إنسان أُوحي إليه لا بشرع جديد بل يتبع شرع الرسول الذي قبله ليبلغه للناس ، وأمَّا الرسول فهو إنسان أُوحي إليه بشرعٍ جديدٍ أو بنسخ بعض شرع من قبله ، وأُمر بتبليغه للناس[1] .

وهنا وقفات :

الأولى : في قولنا : (إنسان) يخرج الجنَّ ؛ فإنَّه لا يُوجد فيهم أنبياء ، إنَّما يُوجد نذر ينذرون ويرشدون ، خلافًا لما وقع في بعض الكتب كالأشباه والنظائر للسيوطي .

وأمَّا قوله تعالى : ﴿ **يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا** ﴾ (الأنعام: ١٣٠) ، فتأوَّله العلماء على رسل عن الرسل سمعوا كلامهم فأنذروا أقوامهم لا رسل عن الله .

أمَّا الملائكة فليس فيهم أنبياء إنَّما فيهم رسل ، فالرسالة مشتركة بين البشر والملائكة .

الثانية : القول الصحيح المعتمد انحصار النبوة في الذكور من البشر ، وقد نقل بعض العلماء الإجماع على عدم إرسال رسل من النساء ، وهذا الإجماع منسوبٌ إلى الكرماني في الكواكب الدراري[2] .

---

(١) يُنظر : أصول الدين لأبي منصور البغدادي ، ص ١٥٤ .

(٢) يُنظر : حاشية الدواني على العقائد العضدية ، ص ١٥٦ .



وهذا هو مدلول قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنبياء:٧) ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ (يوسف:١٠٩) .

وعلى هذا ما قيل من نبوة أربع نسوة (مريم ، وآسيا ، وحواء ، وأم موسي) ليس صحيحًا ؛ فقد قال السيوطي : «لم يصح هذا عندنا في شيء» .

واعلم أنَّه لا يتنافى مع هذه الحقيقة إسناد الوحي إلى أم موسى في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (القصص:٧) ، ولا يتنافى معها - أيضًا - إسناد الأمر الإلهي إلى أم عيسى ، إنَّما هو من تكليم الملك لكن لا بمجرد النبوة .

الثالثة : ما ذُكر في كثير من كتب العقيدة وغيرها أنَّ النبي إنسان أُوحي إليه بشرع سواء أُمر بتبليغه أو لا ؛ فإنَّ هذا القول غير صحيح ، إذ كيف يُتصور أن يكون نبيًّا ثم لم يؤمر بالتبليغ بعد ذلك؟! أليس التبليغ معناه الأمر بالانقياد لأحكام الله وشريعته ، والنهي عمَّا نهانا الله عنه ؛ فإذا كان كذلك فإنَّ آحاد المؤمنين قد أمرهم الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي ذلك تبليغ لشريعة نبيهم - عليه الصلاة والسلام - ، فكيف يُؤمر الآحاد بنشر هذا دون الأنبياء؟! ولا يتحقق وصوله إلى الآحاد إلا من خلال الأنبياء .

ثم ما معنى كون النبي غير مأمور بالتبليغ؟! هل يعقل أن يكون نبيًّا لنفسه؟!

ثم إنَّ قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج:٥٢) أي : ما أرسلنا قبلك رسولاً ولا نبيًّا إلا تمنَّى هداية قومه واجتهد في تثبيت شريعته ونجاح دعوته عن طريق تبليغ ما كُلِّف به ألقى الشيطان العراقيل والشبه على أتباعه لتكون صخورًا في طريق أُمنيته .

- **ثالثًا : حقائق تتعلق بالأنبياء :**

- **الحقيقة الأولى : عدد الأنبياء :** صرَّح القرآن بذكر بعض الأنبياء وهم : آدم ، وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وشعيب ، وأيوب ، وذو الكفل ، وموسى ، وهارون ، وسليمان ، وداود ، وإلياس ، واليسع ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهؤلاء يجب الإيمان بهم تفصيلاً على الوجه الذي ذكره بيان الله .

- **الحقيقة الثانية :** هناك أنبياء آخرون سكت القرآن عن ذكر أسمائهم ، وإن كان قد أشار إليهم من خلال أدوارهم وحواراتهم مع أقوامهم ، ومن ثَمَّ يجب الاعتقاد بأنَّ ثمت أنبياء ورسلا غير هؤلاء الذين صرح القرآن بأسمائهم .

وإننا لا نعرف عنهم ولا عن أقوامهم ولا عن أزمانهم شيئًا ذا بال ، ومع هذا يجب الإيمان بهم ـ أيضًا ـ في الجملة ، أي أن نوقن بأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أرسل رسلاً وأنبياء كثيرين إلى كل أمة وجماعة ، وفي مختلف الأمكنة والعصور ، وفي إثبات هذا يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ **وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** ﴾ (النساء:١٦٤). ويقول أيضًا : ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾ (فاطر:٢٤). ويقول : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ** ﴾ (القصص:٥٩) .

وتحديدهم بعدد معين ليس عليه دليل قاطع ، ومن ثَمَّ لا يؤمن في ذكر العدد ـ كما قال النسفي ـ أن يدخل فيهم من ليس منهم أو يخرج منهم من هو فيهم .

- **الحقيقة الثالثة : أولو العزم من الرسل :** وأولو العزم من الرسل هم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ، وهذا

ما يشير إليه البيان القرآني في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب:٧) .

وينبغي أن يُعلم أنَّ كل رسول من أولي العزم من الرسل كان صاحب كتاب ، وصاحب شريعة كما قال البيان القرآني : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى:١٣) .

- **الحقيقة الرابعة :** أول الأنبياء سيدنا آدم ، وآخرهم سيدنا محمد ﷺ ، وخيارهم محمد ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم نوح - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وينبغي أن يُعلم أنَّ نبوة الأنبياء حقيقة واحدة لا تتفاوت ولا تختلف ما بين نبي وآخر ، فلا يجوز التفريق بين نبوة نبي وآخر ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٨٥) ، وبقوله ﷺ : «لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»[1] .

- **الحقيقة الخامسة : التوحيد لبُّ الرسالات السماوية :** اتحدت كلمة الأنبياء جميعًا من لدن آدم إلى سيدنا محمد على حقيقةٍ واحدةٍ هي الإيمان بوجود الله ووحدانيته وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥) .

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - بَابُ وَفَاةِ مُوسَى وَذِكْرِهِ بَعْدُ ، رقم الحديث (٣٤٠٨) ، مسلم - كتاب الفضائل - باب من فضائل موسى عليه السلام رقم (٢٣٧٣).

وقال : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى:١٣) .

وقال ﷺ : «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ، الْأَنْبِيَاءُ أَبْنَاءُ عَلَّاتٍ ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى نَبِيٌّ»[1] .

- **رابعًا : الصفات اللازمة للأنبياء :**

- **الصفة الأولى : الذكورة** ، وقد سبق بيانها .

- **الصفة الثانية : العصمة** : وهي حفظ الله ـ تعالى ـ لبواطنهم وظواهرهم عن التلبس بمنهيٍّ عنه ، وهذا يعني : أنَّهم متصفون بالصدق والتبليغ ، محفوظون عن الذنوب على تفصيلٍ .

وبيان ذلك : أنَّه يجب للأنبياء الصدق ، ويستحيل عليهم الكذب أمَّا عمدًا فبالإجماع ، وأمَّا سهوًا فعند جمهور المسلمين .

ويجب لهم التبليغ ؛ فلا يتركون شيئًا أمرهم الله بتبليغه ، وذلك مهما لقوا من العباد أذًى أو ضررًا .

أمَّا العصمة من الوقوع في الذنوب ؛ فينبغي أن يُعلم أنَّ الذنوب أنواع ثلاثة :

أعلاها الكفر ، ثم الكبائر ، ثم الصغائر .

أمَّا الكفر ؛ فلا خلاف في أنَّهم معصومون عنه قبل النبوة وبعدها .

وأمَّا الكبائر ؛ فلا خلاف ـ أيضًا ـ في أنَّهم لا يتعمدون فعلها لا قبل النبوة ولا بعدها .

---

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب أحاديث الأنبياء ـ بَابُ قَوْلِ اللَّهِ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ (مريم:١٦) رقم الحديث (٣٤٤٢) ، ومسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل عيسى عليه السلام رقم (٢٣٦٥) .

وأمَّا الصغائر ؛ ففيها خلاف بين العلماء ، فبعضهم منع وقوعها قبل الوحي وبعده ، وبعضهم جوزها بعد الوحي ، لكن بشرط ألا تكون الصغائر من نوع الخسة والوضاعة وسقوط الشخص من أعين الناس ، وعليه أبو الحسن الأشعري .

وأمَّا الصغائر التي لا تخل بالمروءة ولا تستلزم الخسة ؛ فهي محل خلاف وبحث عند العلماء ، والبحث فيه - كما يقول أستاذنا البوطي - داخل في الأمور الاجتهادية التي لم تنهض لها أدلة قاطعة تقطع دابر الخلاف فيها ، وإن كان جمهور أهل السنة يميلون إلى القول بامتناع الصغائر في حق الأنبياء خصوصًا بعد البعثة .

ومن المعلوم أنَّ أمر العقيدة التي يجب اعتقادها لابد أن تقوم البراهين القاطعة عليها .

وحسبك أن تعلم أنَّ الأنبياء والرسل - عليهم الصَّلاة والسَّلام - معصومون عن الكفر والكبائر قبل البعثة وبعدها قطعًا ، ومعصومون عن الصغائر فيما ذهب إليه الجمهور ، ثم قال : «أنَّ الخطأ في الاجتهاد ليس ذنبًا ؛ إذ الاجتهاد عبادةٌ يُثاب عليها المجتهد أصاب أو أخطأ ، لكنَّ الأنبياء والرسل لا يُقرُّون على الخطأ في الاجتهاد ، بل يأتيهم الوحي ببيان الأصوب والأكمل ، والأليق بمنصبهم الشريف ، ولا يخفى أنَّ هذا التصويب من أقوى الأدلة على نبوة النبي ، وأنَّه لا يأتي بشيءٍ من تلقاء نفسه ، إنَّما هو مبلغٌ عن ربِّه بما يأتيه من الوحي» . اهـ[1] .

- **الصفة الثالثة : الفطانة :** ويجب لهم الفطانة أي الذكاء ، فكلهم عليهم السلام كانوا أذكياء فطناء أصحاب عقول كاملة قوية الفهم ، ومن ثَمَّ يستحيل عليهم البلادة والغباوة .

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ بتصرفٍ .

كما يستحيل عليهم كل مرض منفر ، فالأنبياء كانوا ذوي حسن وجمال ، فلا يجوز عليهم المرض الذي ينفر الناس منهم ، فالله لا يسلط عليهم هذه الأمراض ، أمَّا المرض المؤلم الشديد فيجوز عليهم .

• خامسًا : المعجزة ضلعٌ من أضلاع النبوة الثلاثة

١- أضلاع النبوة ثلاثة (الرسول ـ الرسالة ـ البرهان) :

والبرهان هو المعجزة وهي عبارة عن أمرٍ خارقٍ للعادة مقرون بدعوى الرسالة يُظهره الله على يد مدعي النبوة على وفق مراده تصديقًا له في دعواه .

بتأمل التعريف نقول :

قولنا : (خارق للعادة) يفيد أنَّه غير معتاد لكنَّ العقل لا يرفضه لأنَّه ممكن ، وهذا القيد يخرج الأمر العادي ، فلو قال مدعي الرسالة مثلاً : إنَّ معجزتي أن تطلع الشمس من مطلعها فلا يكون هذا الأمر خارقًا للعادة .

وقولنا : (مقرون بدعوى الرسالة) قيد ثان يخرج الإرهاص ؛ فإنَّه خارق يظهر قبل الرسالة تأسيسًا لها .

وقولنا : (يُظهره الله على يد مدعي النبوة) قيد ثالث يخرج به أولاً المعونة ؛ فإنَّها خارق يظهر على يد مستور الحال ، وثانيًا الكرامة ؛ فإنَّها خارق يظهره الله على يد ظاهر الصلاح ، وثالثًا الاستدراج ؛ فإنَّه خارق يظهره الله على يد مدعي الألوهية خديعةً له .

وقولنا : (على وفق مراده) قيد رابع يخرج الإهانة ؛ فإنَّها خارق يظهره الله على يد مدعي النبوة على خلاف مراده إهانةً له ، كما حدث لمسيلمة حين تفل في عين أعور ليبرأ فعميت السليمة .

وقولنا : (تصديقًا له) قيد خامس خرج به الخارق الذي يظهره الله على يد مدعي النبوة على وفق مراده فيكذبه مثل أن يقول : معجزتي أن ينطق هذا الحجر فينطق فيكذبه .

٢- تفترق المعجزة عن غيرها فيما يلي :

من خلال التعريف السابق يتبين لنا أنَّ المعجزة تفترق عن غيرها فيما يلي :

(أ) **الفرق بين المعجزة والكرامة** : أنَّ المعجزة تقع على يد مدعي النبوة ، والكرامة تظهر على يد الولي الصالح ، وأنَّ النبي يتحدى بمعجزته ، أمَّا الولي فلا يتحدى بالكرامة ولا يظهرها ولا يدعي فيها ، بل يرى رؤيتها والنظر إليها والإعجاب بها والدعوة فيها خطأ ومعصية .

(ب) **الفرق بين المعجزة والمعونة** : المعجزة أمر يظهره الله على يد مدعي النبوة ، والمعونة أمر يظهره الله على يد مستور الحال .

(ج) **الفرق بين المعجزة والإهانة** : المعجزة أمر يظهره الله على يد مدعي النبوة تصديقًا له في دعواه ، والإهانة أمر يظهره الله على يد مدعي النبوة تكذيبًا له في دعواه .

(د) **الفرق بين المعجزة والاستدراج** : المعجزة أمر يظهره الله على يد مدعي النبوة تصديقًا له في دعواه ، والاستدراج أمر يظهره الله على يد مدعي الألوهية خديعةً له .

(هـ) **الفرق بين المعجزة والسحر** : يكمن في أمرين :

الأول : أنَّ السحر تخييلٌ يتعامل مع الأعين لا مع الأشياء ، والمعجزة حقيقة تؤثر في ذوات الأشياء .

الثاني : أنَّ المعجزة تستحيل معارضتها والرد عليها بمعجزة أخرى ، أمَّا السحر فعلم يمكن أن يُتعلم ويعارض بمثله(1) .

٣- حكم الإيمان بالمعجزة :

يجب على المسلم أن يعتقد اعتقادًا جازمًا بأنَّ الله - جلَّ وعلا - أيَّد أنبياءه ورسله الذين أرسلهم إلى الناس بمعجزات تبيِّن صدق دعوتهم ، وتوضِّح للناس ارتباطهم بالله - عزَّ وجلَّ - ، وأنَّهم مؤيَّدون به .

وما من نبي إلا وقد أكرمه الله بمعجزة نبَّهت الناس إلى ضرورة الإيمان به ، والتمسك بهديه ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(2) .

٤- أبرز معجزات الأنبياء السابقين :

أبرزها أمران :

الأول : أنَّها معجزات حسية ؛ كالعصا ، والآيات التسع بالنسبة لسيدنا موسى عليه السلام ، وكإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص بالنسبة لسيدنا عيسى عليه السلام ، وخروج الناقة من صخرة على يد سيدنا صالح عليه السلام ، وعدم احتراق سيدنا إبراهيم عليه السلام بالنار العظيمة التي ألقاه فيها الملك الذي حاجه إبراهيم عليه السلام ، وكذلك تسخير الشياطين لسيدنا سليمان ، وإلانة الحديد لسيدنا داود - عليهما الصلاة والسلام .

---

(1) يُنظر : مقومات الإسلام ، ص ١١٠ .

(2) أخرجه البخاري - كتاب فضائل القرآن - بَابٌ : كَيْفَ نَزَلَ الوَحْيُ ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ - رقم (٤٩٨١) ، ومسلم - كتاب الإيمان - بَابُ وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ ، وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ - رقم (١٥٢) .

الثاني : معجزات محصورة في أماكن معينة وأزمان معينة أيضًا ، لأنَّ رسالات الأنبياء كانت خاصة بشعب معين ، ولها أجل محدود ، ومن ثَمَّ جاءت معجزاتهم حسية محدودة الزمان والمكان .

٥- معجزات سيدنا محمد ﷺ :

والحديث هنا في نقطتين :

النقطة الأولى : إثبات نبوته

بداية : إن الوحي الإلهي حقيقته واحدة ذات معنى واحد في تاريخ الوجود الإنساني مهما تعددت الأشخاص بالذين كانوا مناطا لهذا الوحي ، ومن ثَمَّ : فإن محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن بدعا من الرسل ، ولم يكن الوحي الذي تنزل عليه ظاهرة جديدة في حياة الإنسانية وتاريخها ، بل سبقه في ذلك رسل وأنبياء كثيرون .

إذًا فحقيقة معنى النبوة والوحي الذي يستلزمها شيء مستقر في التاريخ بقطع النظر عن التحريف والتبديل اللذين طرءا على الوحي الإلهي عند السابقين ، ومن هنا فإن إثبات أمر الوحي لسيدنا محمد يعتمد على إثبات رسالته .

وقد استدل علماء أصول الدين على إثبات رسالته بمسالك ستة :

أولها : تصويب النظر إلى معجزاته من القرآن وغيره من المعجزات الأخرى التي تفيد جملتها التواتر المعنوي بحصول خرق العادة منه مقرونا بدعوى التحدي .

ثانيها : الاستدلال بأحواله قبل النبوة وبعد تمامها ، فقد اجتمع فيه من الأخلاق الحميدة والأوصاف الشريف والسيرة المرضية والكمالات العملية والمحاسن الراجعة إلى النفس والبدن والنسب ما يجزم العقل بأنه لا يجتمع إلا لنبي .

ثالثها : الاستدلال بأخبار الأنبياء المتقدمين عليهم السلام بنبوته ، كالذي ورد في التوراة والإنجيل من البشارة به والتنويه إلى زمنه والإشارة إلى صفاته .

رابعها : الاستدلال بحاجة العالم كله الماسة والملحة إلى بعثته ، فقد ظهر أحوج ما كان الناس إلى من يهدي إلى الطريق المستقيم ويدعو إلى الطريق القويم ، لكن الزمان زمان فترة من الرسل وتفرق للسبل وانحراف في الملل واختلال للدول واشتغال للضلال يستوي في ذلك العرب وغيرهم .

خامسها : الاستدلال بنصرة الله له مع ضعفه وفقره وقلة أنصاره على أعدائه كافة من أهل العدد والعدة ، وإظهاره تعالى لدينه على الدين كله واستعصاء نور الله الذي جاء به على عدوه أن يطفئه .

سادسها : الاستدلال بمضمون شريعته الغراء ما فيها من العلوم والمعارف الجليلة والحكم والآداب السامية الرفيعة ، مما يتعلق بالاعتقادات والعبادات والمعاملات والسياسات والأخلاق ، فمن نظر فيها نظر المتأمل الواعي علم قطعا أنها ليست إلا وضعا إلهيا ووحيا سماويا وأن المبعوث بها ليس إلا نبيا[1] .

وهنا لا بد لنا من ملاحظة أمرين يجب أن نأخذهما بعين الاعتبار: الأمر الأول: أن أدل هذه المسالك الستة على إثبات نبوته هو المسلك الأول وذلك هو حجر الزاوية ، ومع ذلك فلا مانع من الاستدلال بما بعده من المسالك الخمسة الأخرى من باب معاضدة الأدلة ، ومن ثَمَّ فقد استدل بهذه الخمسة الأخيرة هرقل ملك الروم على نبوته ، وأقام الحجة بها على أبي سفيان ومن معه إبان كانوا لا يزالون على الشرك كما في الحديث عند الشيخين - البخاري ومسلم وغيرهما - فقال هرقل بعد أن سأل أبا سفيان وأجابه : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان واحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك : هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا ، قلت : لو كان

(١) ينظر : شرح المواقف ١٩٠٥/٣ ، وشرح المقاصد ١٣٥/٢ .



من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا ، فقلت : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك : أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاءهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك : بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف ، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه»[(١)] .

النقطة الثانية : من أعظم المعجزات التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ : القرآن الكريم ؛ فهو المعجزة الباقية إلى انقضاء الدنيا بخلاف بقية المعجزات ؛ فإنَّ كلاًّ منها قد انقضى بحينه .

والقرآن الشريف معجزةٌ عقلية ، ووجه الإعجاز فيه يمكن أن يتلخص في أربعة عشر وجهًا ، وهاك البيان :

الوجه الأول : النسيج الصوتي ، ونعني به الإعجاز بانتقاء الصوامت اللغوية التي تكون المادة اللغوية التي أُخذت منها الكلمة القرآنية ، من ذلك : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (الضحى:٩-١٠) ، فالممنوع في اليتيم

(١) ينظر : صحيح البخاري كتاب بدء الوحي .

القهر ، والممنوع في السائل النهر ، ولمَّا كان القهر ذا تأثير في النفس أقوى جيء بالقاف الحرف القوي ليلائم كون الممنوع مع اليتم هو الوصول إلى مستوى التأثير الشديد في النفس ، أمَّا مع السائل فإنَّ أي تأثير في النفس ولو كان ضعيفًا ممنوعٌ ، ومن ثَمَّ جيء بصوت النون الضعيف .

الوجه الثاني : التشكيل المقطعي ، ونعني به الحركات والسكنات في بناء الأسلوب ومدى تجاوبها مع المعنى المقصود ، من ذلك : ﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ** ﴾ (المدثر:٤٢) ، فالحركات في الفعل (سلككم) متوالية سريعة تحكي توالي حركاتهم في النار .

الوجه الثالث : البناء الصيغي ، من ذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ** ﴾ (التوبة:٣٨) ، وليس تثاقلتم ، وإنَّما قال : ﴿ **اثَّاقَلْتُمْ** ﴾ بقلب التاء ثاءً وإدغام أحد المثلين في الآخر ، وهذا اللفظ في ثقله وقوة جرسه يفيدك بأنَّ بيننا وبين الأرض جاذبية شديدة المغنطة .

الوجه الرابع : اصطفاء المادة اللغوية ، ونؤكد أنَّ للمادة اللغوية دورًا كبيرًا في بعث ومضات إعجازية في البيان القرآني .

نقول : لماذا أجمعت القراءات القرآنية المتواترة على كلمة (انبجست) في موضع ، و(انفجرت) في موضع؟

ولماذا لم يقل القرآن « جائزة » في وصف القسمة ، وأجمعت القراءات على كلمة « ضيزى »؟ ولماذا نُودي ﷺ في القرآن الكريم مرةً بالمزمّل ، وأخرى بالمدثّر؟ ولماذا ﴿ **تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ** ﴾ (يوسف:٨٥) دون غيرها من أفعال الاستمرار؟ وهكذا دواليك .

الوجه الخامس : الجملة بنظمها ، من ذلك : قوله تعالى : ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ (هود:٤٤) .

تأمّل هل ترى لفظةً من هذه الآية بحيث لو أُخذت من بين أخواتها وأفردَت لأدَّت من الفصاحة ما تؤدّيه ، وهي في مكانها من الآية ، وإن كان عليها طلاوة الإعجاز في نفسها إلا أنـّها في سياقها يزداد إعجازها حيث لا يغني غيرها غناءها .

وتأمّل كذلك مبدأ العظمة في أن نُوديت الأرض ، ثم أُمرت ، ثم في أن كان النداء بـ « يا » ، دون « أي » نحو : يأيتها الأرض ، ثم إضافة الماء إلى الكاف ، دون أن يقال : ابلعي الماء ، ثم أن أُتبعَ نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء ، وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : « وغيض الماء » فجعل الفعل على صيغة « فُعِلَ » الدالة على أنـّه لم يغض إلاَّ بأمر آمرٍ ، وقدرة قادرٍ ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ (هود:٤٤) ، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور ، وهو ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ (هود:٤٤) ، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة « قيل » في الخاتمة بقيل في الفاتحة .

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبةً تحيط بالنفس من أقطارها تعلقًا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق ، أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب»[(١)] .

الوجه السادس : الأسلوب القرآني ، ففيه القصد في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى ، وخطاب العامة والخاصة ، وإقناع العقل وإمتاع العاطفة ، والبيان والإجمال ، إلى غير ذلك مما هو مفصلٌ في كتابنا (لا يأتون بمثله . . . . دراسة في إعجاز القرآن) .

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ، ص ٤٥ ، ٤٦ .



الوجه السابع : التعدد القرائي ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ** ﴾ (البقرة:٨١) ، فهذه القراءة وردت بإفراد الخطيئة ، وثمت قراءة متواترة أخرى جاءت بجمع الخطيئة « خطيئاته » .

هذا التعدد ليس ترفًا قرائيًا ، وإنَّما هو ضرورة اقتضاها تكامل أوجه الإعجاز ، ذلك بأنّ قراءة الإفراد تتعانق - في الرصف - مع قوله : « سيئة » ، فالإفراد يجمعهما ، والإفراد هنا مرادٌ منه الجنس .

أمَّا قراءة « خطيئاته » فتتناغى هنا مع ما يتطلبه الفعل « أحاط » ؛ لأنّ الإحاطة لا تكون من خطيئة واحدة ؛ وإنما يلزمها التعدّد ، وحينئذٍ يكون الإفراد في « سيئة » مرادًا منه الجنس ، والجمع في خطيئاته مرادًا التنوع .

الوجه الثامن : البنية والإيقاع ، خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿ **وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً** ﴾ (المزمل:٨) . فمقتضى الرصف أن تقول : وتبتل إليه تبتلاً ؛ لكنَّه عدل عدولاً صيغيًا عن « تبتُّلاً » إلى صيغة التفعيل ؛ لكي يحافظ على البنية الإيقاعية لفاصلة الآية بين ما سبقها وما لحقها .

الوجه التاسع : التصوير البياني ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ** ﴾ (الأعراف:٤٠) .

والمعنى الذهني الذي تقرره الآية : هو أنَّ الكفار لن ينالوا القبول عند الله ، وأنَّه يستحيل عليهم دخول الجنّة ، ولكنَّ هذا المعنى المجرّد يعرض بهذا الأسلوبَ التصويري . . فيدعك ترسم بخيالك ، صورة لتفتح أبواب السماء ، وصورة أخرى لولوج الجمل في سمّ الخياط ، ويدع للحسّ أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاءَ الله التأثير ؛ ليستقر في النهاية معنى القبول ، ومعنى الاستحالة في أعماق النفس .



الوجه العاشر : الأصباغ البديعية ، ومن صورها قول الله ـ تعالى ـ في وصف الصحبة المحمدية ـ رضوان الله عليهم ـ : ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح:٢٩) ، إنَّ القرآن الكريم لو وقف عند مستوى البلاغة بالطباق لقال : أشداء على الكفّار ، لَيِّنونَ بينهم ، لكنَّه عدل إلى رحماء عدولاً معجميًا ، وذلك لما يلي :

أولاً : لَـيِّـنُـونَ ، يفهم منها بعض رخاوة ، ولا يفهم ذلك من رحماء .

ثانيًا : كل رحيم فيه لين ، وليس العكس .

ثالثًا : صيغة رحماء ، بتشكيلها المقطعي ترسم سعة صدور الرحماء رسمًا صوتيًا .

وهذه الثلاثة هي الفرق بين بلاغة الطباق في كلام الناس ، والإعجاز بالطباق في البيان القرآني ، فقد استسمر البيان القرآني في صناعة الطباق المادة اللغوية والصيغة والتشكيل المقطعي ، استخدامًا يصبُّ في الغرض الذي يرمى إليه الطباق .

الوجه الحادي عشر : الوقف والابتداء ، من ذلك : أنَّ القارئ له أن يقف على قوله : «بنات الأخت» من قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ (النساء:٢٣) . ويكون المعنى : بيان الفرق بين التحريم النسبي والسببي ، ويمكن أن يقف على آخر الآية عند قوله : ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (النساء:٢٣) ، وذلك لبيان حصر المحرمات دفعة واحدة .

الوجه الثاني عشر : تعدد أوجه الإعراب ، ففي إعراب آيات القرآن فوائد جمّة في طليعتها معرفة المعنى ؛ لأن الإعراب والمعنى وجهان لعملة واحدة يدعم أحدهم الآخر ، ويسترفد منه في آن واحد . ومثال ذلك : كلمة «أحوى» في قوله : ﴿ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ (الأعلى:٥) ، فهي صفةٌ منصوبةٌ لكلمة «غثاء» إذا أُريد بها

الجفاف والسواد أو حالٌ من المرعى إذا نظرنا إلى شدة خضرتها التي تُرى من بعيد سوادًا على حدّ قوله تعالى : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ (الرحمن: ٦٤) .

الوجه الثالث عشر : المناسبة ، فقد أجمع العقلاء الألباء على أنَّ القرآن معجز في أسلوبه وبيانه ، وذلك يوجب أن تكون آياته متآلفة مع بعضها بعضًا ، وأن تكون سوره مرتبطة ببعضها أيضًا ؛ لأنَّ حسن تآلف الكلام وتناسبه مما يحسن به كلام البلغاء ويسمو ، كما أن تفككه وضعف ترابطه ينزل برتبة الكلام ويضعفه ، فلا بد إذًا أن يكون البيان القرآني مراعيًا للتآلف والترابط ، الذي يناسب سمو وإعجاز القرآن ، ولله در الإمام الرازي إذ يقول : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط .

ويقول البقاعي : « وهو ـ أي علم المناسبة ـ سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك منها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها ، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة ، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو » .

ثم يقول : « وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب ، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين : أحدهما : نظم كل جملة على حالها بحسب التركيب . والثاني : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب »[1] .

ومن ذلك : أنَّ والعلاقة الكلية بين مضمون كل من سورتي البقرة وآل عمران ، أن مضمون البقرة هو الدعوة إلى الامتثال والحذر من نقيضه فجاءت سورة آل عمران لإنصاف أولئك الصفوة المختارة من عباد الله ، ولا ريب أن هذه الصفوة على قمة من امتثل لأوامر الله وأحكامه .

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٦/١ ، ٦٠ ، ٦٢ .



أما المسلك الخاص بين السورتين ؛ فإننا نقرأ آخر البقرة ، وهو قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٨٥) ، ونقرأ أول آل عمران : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ (آل عمران:٢-٤) .

ومن هذا تجد أن سورة آل عمران كأنها استمرار لسورة البقرة ؛ لأنها حديث عن الكتب المنزلة وعن الرسل - عليهم السلام - وهي التي آمن بها الرسول والمؤمنون ، والذي في السورة هو حديث عن أهل الكتاب .

ثم إن الجملة الأولى في سورة آل عمران هي رأس آية الكرسي ، وآية الكرسي هي سنام البقرة ، وإذا رجعت آية الكرسي وجدت الجملة الأولى منها هي أم معنى آية الكرسي ، وبقية الجمل هي أوصاف تؤكد القيومية التي هي أصل المعنى ، وهذا يعني أن سورة آل عمران استصحبت معها سنام البقرة .

الوجه الرابع عشر : الإعجاز بالمضمون ، ما مضى من الأوجه السابقة إنَّما هو من حيث دلالة الألفاظ في آفاق الإعجاز اللغوي ، أمَّا من حيث المضمون فإنَّا نجد العديد من المحاور والأبعاد :

أولها : مظهر جلال الربوبية في القرآن الكريم .

وثانيها : الإعجاز الغيبي .

وثالثها : التشريعي .

أولاً : مظهر جلال الربوبية :

وعلى ذكر ما سبق قبل أن نحلِّل هذا الوجه من الإعجاز ينبغي أن نُنبِّه إلى حقيقة علميَّةٍ ونفسيةٍ ليس فيها افتراء ، وهي أنَّ الكلام مرآة دقيقة لطبيعة المتكلم

فما تتجلّى الأغوار النفسية لشخص كما تتجلّى على ما قد يكتبه أو يقوله ؛ ذلك لأنَّ الأسلوب ليس طريقةً معينةً في صوغ العبارة فقط ، بل هو قبل ذلك مرآة لنفسيِّة صاحب الأسلوب ، وتكاد تكون دلالة الكلمة في لسان كل فردٍ من المتكلمين ذات ملامح خاصة لا تتفق تمامًا مع ملامحها في لسان متكلم آخر ؛ وذلك لأنَّ جزءًا من هذه الملامح مستمدٌّ من نفسية المتكلم ، ولئن استطاع كاتب مّا أن يقلّد كاتبًا آخر في صوغ عباراته وأسلوبه ، فهيهات ثم هيهات أن يستطيع أن يقلده في إبراز نفسيته ، ومن هنا يأتي العجز أن يتقمص كاتب أسلوب كاتب آخر ، وإذا كانت هذه الفوارق النفسية والطبيعية تحول في الطبيعة الإنسانية المحاكاة ، فكيف الظن بمَنْ يريد أن يتجرّد من طبيعته البشرية ليتقمَّص من نفسه إلهًا يتصف بصفات الكمال ويتكلم بعظمة جلال الربوبية .

والمقصود من هذا الوجه «مظهر جلال الربوبية في القرآن الكريم» ، أو بتعبير الباقلاني : «نظم القرآن من الأمر الإلهي» هو أنَّ كلام الله فيه شيءٌ لا يمكن أن يكون كلام غيره بما فيهم رسوله ﷺ ، وهو عز الألوهية وجلال الربوبية .

وننمذج لذلك فنقول :

اقرأ قول العلي الأعلى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق:٤٣-٤٥) .

تأمّل في هذه الآيات وفيما تحمله من دلالات الجلال والرهبة ، ثم قل لي بربك : أيمكن لبشر من الناس أن يدور لسانه في فمه بمثل هذا الكلام؟!

إنَّ بشرية الإنسان وعجزه أيًا كان دينه أو لونه أو جنسه يُتحان له بحال أن يقول مثل : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (الحجر:٤٩-٥٠) ، أو يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا



تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٧) . ومَنْ حاول فسيلتوي عليه لسانه ويتعثر بمخلوقيته وضعفه .

ثانيًا : الإعجاز بالمغيَّبات .

ومقصوده : أنّ القرآن معجزٌ بما فيه من إخبارٍ بأمور غيبيةٍ تحققت كلها على الوجه الذي أخبر القرآن عنه ، ولم يتخلف من ذلك شيء البتة .

وهذا أمرٌ ليس في مقدور البشر ، ومهما برع المتوسمون في الأحداث ، وخبروا منطقها ، وتسلسلها ، ودققوا في معرفة العلل وترتب المسبّبات على الأسباب ، ثم قاسوا الغائب على الشاهد بالحسابات الدقيقة فلن يكون تنبؤهم بما سوف يكون تنبئًا قاطعًا ، وإنَّما هو ضربٌ من غلبة الظنّ ، وترى حدسهم ، وما تنبؤوا به لا يقع كما وصفوه وضبطوه،وإنَّما يقع في أحسن الحالات على صورة قريبة منه، ولم يكن الأمر كذلك فيما أخبر عنه القرآن[1] .

وآية ذلك أنَّ هذا اللون من الإعجاز يقع في كتاب الله على أربعة أنواع :

النوع الأول : إخباره بالأحداث المستقبلة .

النوع الثاني : إخباره عن مصائر أشخاصٍ بأعيانهم .

النوع الثالث: إقراره قوانين ثابتة نافذة في مظاهر الكون لا يمكن تغييرها .

النوع الرابع : إخباره عن حقائق علميَّة لم تكشف إلا في مستقبل الأيَّام .

فمن النوع الأول : الإخبار المحدّد في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم:١-٥) .

---

(١) ينظر : الإعجاز البلاغي الدكتور محمد أبو موسى ، ص ٥٧ .



ومن النوع الثاني : قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد:١-٣) .

ومن النوع الثالث : أي : القوانين النافذة في الكون الحاكمة على الناس كلهم : قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يس:٦٨) ، ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (النساء:٧٨) ، ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ (المؤمنون:١٨) ، ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ (الزخرف:٣٢) .

والنوع الرابع : الحقائق العلمية «الإعجاز العلمي» : وهو إعجازٌ ذو لونين علميّ وغيبي فهو غيبي من حيث إنَّه كان إخبارًا بغيبٍ لم يقع ثم وقع ، وهو علمي من حيث إنَّه إخبارٌ عن شيءٍ لم يكن معروفًا لدى العرب ثم اكتشفه العلم ، ومن ثمَّ رأينا أنَّ الإعجاز العلمي إعجاز ثنائي فأدرجناه في الإعجاز الغيبي .

وبمكنتنا أن نوجز الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في أمرين أساسين :

الأوّل : ما احتواه القرآن من المعارف عن الكون والإنسان والحياة .

الأمر الثاني : وقد يستغربه القارئ : وهو أنَّ ما يحتويه القرآن هام أيضًا ، فإنَّ القرآن لا يحتوي في الواقع على ذكر النظريات السائدة في عصر تنزيله عن تنظيم العالم السماوي مثلاً ، تلك النظريات التي أثبت العلم فيما بعد عدم صحتها ، ولا بّد من التنويه بهذا الطابع السلبيّ ، والعلة في ذلك : أنَّه لو كان مصدر القرآن غير سماوي لكان لازمًا قطعًا أن تتسرَّب إليه نظريات ذلك العصر .

المعجزات الحسية لسيلنا محمد ﷺ :

ومن الخوارق الحسية التي حدثت على يديه ﷺ :

الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعودته ﷺ إلى مكة في ليلةٍ واحدةٍ ، وهذه المسافة يقطعها الناس عادة في شهرٍ ذهابًا وإيابًا ، قال تعالى :

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١).

وكذلك المعراج إلى سدرة المنتهى .

انشقاق القمر : وقد أشار إليه القرآن الكريم في مطلع سورة القمر ، فقال : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ (القمر: ١) ، ووردت به روايات بلغت مبلغ التواتر .

نبع الماء من بين أصابعه الكريمة : قال أنس : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، وَحَانَتْ صَلاةُ الْعَصْرِ ، فَالْتَمَسَ النَّاسُ الْوَضُوءَ ، فَلَمْ يَجِدُوهُ ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِوَضُوءٍ ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الْإِنَاءِ يَدَهُ ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّئُوا مِنْهُ ، قَالَ : «فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ ، فَتَوَضَّأَ النَّاسُ حَتَّى تَوَضَّئُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ»[1] .

ومنها : حادثة سراقة بن مالك ، وحنين الجذع إليه ﷺ لمّا فارقه واستبدل به منبره ، وإخباره عن فتح خيبر ، إلى غير ذلك من الخوارق التي تواتر نقلها ، وتقبلها خاصة المسلمين وعامتهم .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة في الإسلام رقم الحديث (٣٥٧٣)، ومسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب في معجزات النبي ﷺ رقم الحديث (٢٢٧٩) .

السمعيات

وقبل أن ندخل في بيان مفردات السمعيات التي يجب أن نؤمن بها نقف عدة وقفات :

- **الأولى : الكونيات والغيبيات من السمعيات :** نحن - وإن كان بعض الباحثين - قد حدثنا عن ما سماه بالكونيات ؛ كشيخنا العلامة البوطي ، وبعضهم قد حدثنا عن بعض السمعيات تحت ما سماه بالغيبيات ؛ كشيخنا فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب إلا أنَّنا نرى أن دخول ما سمياه بالكونيات والغيبيات في السمعيات أدق من عزلهما عنها ؛ وذلك لأنَّ طريق الإيمان بها ليس إلا السماع من المعصوم ﷺ .

- **الثانية : مفهوم السمعيات :** يجب أن تعلم في كلمةٍ جامعةٍ مجملةٍ أنَّ السمعيات أو القضايا السمعية هي التي تُتلقى بالسماع من المعصوم وهو الرسول ﷺ عن طريق الوحي كتابًا وسنةً .

- **الثالثة : بين ثبوت الإلهيات والنبوات وثبوت السمعيات :** يجب أن نكون على ذكرٍ من الفرق بين ثبوت الإلهيات والنبوات وثبوت السمعيات .

فأهل السنة في ثبوت الإلهيات أفسحوا مجالاً لدور العقل واستدلالاته وبراهينه في إثبات وجود الله الخالق العظيم - جلَّ جلاله - ، واشتهرت الأدلة العقلية في هذا الباب ، كما أفسحوا المجال لدور العقل في إثبات النبوات ، أمَّا دائرة الغيب وهي السمعيات ، فلا مجال للعقل فيها بإثبات أو نفي ، وهذا يعني أنَّها ممكنة في نفسها لكنَّ ثبوتها حاصلٌ بالنقل عن المعصوم فقط .



ومن ثمَّ كان من منهجهم - أهل السنة والجماعة - في الغيبيات تلك القاعدة الكلية التي تقرر أنَّ الغيبيات قضايا ممكنة حكم الصادق المصدوق بثبوتها ، فصارت ثابتة لحكم العقل بإمكانها ، ولحكم الشرع بإثباتها .

وقد كان شيخ الإسلام مصطفى صبري على بصيرةٍ حين قال : «ما ثبت سمعًا عن المعصوم لا يترتب على عدم وجوده محال ، أما ما ثبت عقلاً فيترتب على عدم وجوده محال عقلي كوجود الباري - سبحانه وتعالى .

وكذلك حين نبَّه إلى أنَّ الدليل العقلي أعلى شأنًا من الدليل التجريبي ؛ لأنَّ الدليل العقلي يثبت به وجود الله واجب الوجود ، بينما الدليل التجريبي أعلى ما يثبت به وجود الأنبياء ، ووجودهم ليس بواجب الوجود» . اهـ[1] .

ونزيد المسألة وضوحًا وجلاءً حين نتأمل كلام شيخ الإسلام في عصرنا الشاهد الأستاذ الدكتور أحمد الطيب حين يقول : «لا تظن أنَّ السمعيات إذا كانت تثبت بالدليل السمعي الذي هو الشرع أو النص أو النقل فإنَّها تُعارض العقل أو تتناقض مع أصول النظر العقلي ومناهجه ؛ لأنَّ العقل لا يجد أية صعوبةٍ منطقيةٍ في أن يؤمن بحياةٍ تكون بعد الموت مثلاً ، أو الاعتقاد في حسابٍ ومحاكمةٍ وجزاءٍ وثوابٍ وعقابٍ وجنةٍ ونارٍ ، وكل ما نسمعه من الأنبياء في هذا المجال إنَّما يقع - كما ذكرنا سابقًا - في دائرة الإمكان العقلي ، وإذا كان العقل لا يستطيع أن يتوصل إليه مستقبلاً ، فإنَّه لا يستطيع أيضًا أن ينكره أو يُعارضه ، بل لا يستطيع المنكر للسمعيات أن يُقدم دليلاً عقليًا على استحالتها أو عدم إمكانها ووقوعها ، فالسمعيات أمورٌ ممكنة يقبلها العقل ويصدق بوقوعها إذا أخبره بذلك معصومٌ يستحيل عليه الكذب» . اهـ[2] .

---

(١) القول الفصل ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) مقومات الإسلام ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .



● السمعيات أمورٌ عديدة أبرزها ما يلي :

● أولاً : الإيمان بالملائكة

١- وجود الملائكة : الملائكة كائنات غيبية يدل على وجودها الكتاب والسنة الصحيحة ، أمَّا الكتاب فقوله تعالى : ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ** ﴾ (البقرة:٢٨٥) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا** ﴾ (النساء:١٣٦) .

وأمَّا السنة فقوله ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان : « **أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ ، وَمَلاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** »[1].

٢- حكم الإيمان بهم : الإيمان بوجود الملائكة مكون رئيس من مكونات الإيمان بوجهٍ عامٍ ، يأتي في المرتبة الثانية بعد الإيمان بالله مباشرةً ، كما ورد في الآيتين والحديث سابقًا .

ومن ثَمَّ فإنكار وجود الملائكة أو جحدهم كفرٌ بواحٌ ؛ لأنَّه إنكارٌ لمعلومٍ من الدين بالضرورة .

ويثور هنا سؤال يقول : ما الحكمة في أن يأتي الإيمان بالملائكة تاليًا للإيمان بالله ، وقبل الإيمان بالكتب والمرسلين؟

وللجواب نقول : إنَّما جاء الإيمان بالملائكة تاليًا للإيمان بالله ، ومقدمًا على الإيمان بالكتب والمرسلين ؛ لأنَّ المرسلين إنَّما صاروا كذلك من خلال رسالات تتضمنها كتب إلهية حملتها الملائكة إليهم ، فلزم الإيمان بهم قبل الإيمان بالكتب والمرسلين .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ بَابُ معرفة الْإِيمَانِ ، وَالْإِسْلَامِ ، والْقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ رقم الحديث (٨) .



٣- الملائكة في تصورات البعض : من قبل قرأنا عن البوذية والبرهمية وعن بعض العرب قبل الإسلام أنَّهم يرون الملائكة إناثًا في غير متكأٍ من برهان يقتنع به العقل ، أو نصٍ صحيح النقل .

وقد أورد القرآن بعض ألوان تلك الأوهام وردَّ عليها ردودًا قاطعةً ، فقال : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف:١٩)، ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الصافات:١٤٩-١٥٥) .

٤- صفات الملائكة : الملائكة عبارةٌ عن أجسامٍ نورانية أولي أجنحةٍ قادرة على التشكل بالأشكال الحسنة ، كما يتشكلون في صورة الإنسان ؛ كمجيء جبريل لسيدنا محمد ﷺ على صورة إنسان هو دحية الكلبي ، لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يتزوجون ولا يتناسلون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وبكل فقرةٍ من هذا التعريف للملائكة وردت نصوص قرآنية أو نبوية ؛ فخلقهم من نور جاء في حديث أمِّ المؤمنين عائشة كما في صحيح مسلم ، قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ** »[1] .

وأمَّا أنَّهم أولو أجنحة ؛ فقد جاء في مطلع سورة فاطر : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الزهد والرقائق ـ بَابٌ في أحاديث متفرقة رقم الحديث (٢٩٩٦) .

ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر:١) ، وقد جاء في الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح ، وفي رواية أمِّ المؤمنين عائشة بزيادة « ساد ما بين الأفق » .

أمَّا التشكل فكثيرًا ما كان يتمثل للنبي ﷺ في صورة إنسان ؛ كما ورد في صحيح مسلم في الحديث المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1] ، وقد تمثل لمريم في صورة بشر سوي الخلقة يبشرها بعيسى ؛ كما جاء في سورة مريم : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (مريم:١٧) ، وكذلك تمثلت الملائكة في صورة ضيوف لإبراهيم : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾

(الذاريات:٢٤-٢٥)

وأمَّا كونهم لا يعصون الله ؛ فهذا نص قوله تعالى : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم:٦)، وكونهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، كذا جاء في سورة الأنبياء .

٥- **وظائف الملائكة** : الملائكة جنود الله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر:٣١) ، فمنهم ملائكة الأرحام التي تنفخ الروح في الأجنة ، والملائكة الحفظة والكتبة ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الرعد:١١) ، وحملة العرش ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ (الحاقة:١٧) .

وجبريل ملك الوحي ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٥) ، وإسرافيل النافخ في

---

(١) سبق تخريجه ص ١٣٨ .



الصور ، وملائكة الموت ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (الأنعام:٦١) ، ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (السجدة:١١)، والملائكة المبشرون بالجنة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت:٣٠) ، وكل القائمين على تنفيذ قضاءات الله أقدارًا في الواقع من الملائكة .

• ثانيًا : الإيمان بالجن

١- وجود الجن : وفي بيان هذه الفقرة نحيلك إلى قلم شيخنا البوطي ـ رحمه الله ـ إذ يقول : «لقد ثبت وجودهم بالدليل القطعي الذي لا احتمال فيه . والدليل هو الخبر الصادق الذي جاء به القرآن بنصوص قاطعة لا احتمال فيها ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (الأحقاف:٢٩) ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾

(الرحمن:١٤-١٥) .

وقد جاء في السنة ـ أيضًا ـ أحاديث مختلفة تثبت حقيقة الجن وتخبر عنهم ، فمن ذلك ما رواه البخاري أنَّه ﷺ انْطَلَقَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ ، فَقَالُوا : مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا : حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ ، قَالُوا : مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ شَيْءٌ

حَدَثَ ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَانصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الفَجْرِ ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ ، فَقَالُوا : هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ ، وَقَالُوا : يَا قَوْمَنَا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ (الجن:١-٢)»[١] .

وإذا كان وجود هذه الخليقة مستندًا إلى هذه الأخبار اليقينية التي وردت إلينا من الكتاب ، وفصَّلتها السنة ، وكان أمرها معلومًا من الإخبارات الإلهية بالضرورة ـ أجمع المسلمون على أنَّ الإيمان بوجود الجن من المستلزمات الأساسية للإيمان بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وأنَّ إنكارهم أو الشك في وجودهم يستلزم الردة والخروج عن الإسلام .

إنَّ إنكارهم يستلزم نتيجتين اثنتين :

الأولى : إنكار شيء علم ثبوته من الدين بالضرورة .

الثانية : تكذيب الخبر المتواتر اليقيني الوارد إلينا عن الله ـ جلَّ جلاله ـ ، وهو يناقض الإيمان بالله ـ جلَّ جلاله ـ ، كما يناقض الإيمان بكتابه المعجز .

وكلا هاتين النتيجتين تتنافيان مع الإسلام ومقومات الإيمان بالله عزَّ وجلَّ». اهـ[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الأذان ـ بَابُ الجَهْرِ بِقِرَاءَةِ صَلاَةِ الفَجْرِ ، رقم الحديث (٧٧٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

(٢) كبرى اليقينيات ، ص ٢٨٠ .



٢- أصل الجن : الجن في الأصل من مارجٍ من نار أي من نار لا دخان لها ، وهم عنصر من عناصر المخلوقات يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون ، منهم المؤمن ومنهم الكافر ، وهم مخاطبون برسالة النبي الخاتم محمد ، وقد ورد ذكرهم في مواضع عديدة من القرآن الكريم فضلاً عن أنَّ لهم سورة باسمهم في القرآن هي سورة الجن ، وهم يموتون ويبعثون وينشرون ويحاسبون كالإنسان تمامًا .

٣- إنكار الجن بلغة العلم : إنكار الجن من أدعياء العلم ماديةٌ تقود إلى شططٍ لا تستند إلى دليل ، وتصادم صريح القرآن وصحيح السنة صدامًا مباشرًا ، وبذرة ذلك تتمثل في خروج الغرب على الكنيسة في القرون الوسطى ، واعتبارهم من الميتافيزيقا التي تطورت متجسدة في الفلكلور الشعبي .

والمدققون من سدنة اليهودية والمسيحية مؤمنون بالجن ، والإسلام يرى أنَّ الجن من السمعيات التي لا طريق إلى معرفتها إلا بالسماع من الوحي الشريف ، ومحاولة التكلف لأدلة غير الوحي في إثبات الملائكة والجن معًا تعسف فكري في ضوء ما تقرر من أنَّ الملائكة والجن من السمعيات ، لكننا أمام إلحاح الماديين على انتصاب عدم وقوع الجن والملائكة حتى الحس البشري ، نقول : أنت ترى السيارة وهي أمامك ، فإذا ركبها أحد وسار بها نحو خمسة كيلو مترات مثلا بحيث صرت لا تراها .

هل عدم رؤيتك لها يدل على أنَّها لا وجود لها؟!

إنَّ الواقع أنَّها خرجت عن مدى بصرك لكنَّ ذلك ليس دليلاً على أنَّها لا وجود لها ، وكان القدماء من العلماء والباحثين على بصيرةٍ حين أطلقوا على هذه المباحث (السمعيات) أي الأمور التي طريق معرفتها السماع من الوحي فقط ،



ثم إنَّك تؤمن معي بأنَّ العنصر الرئيس في حياتك هو الهواء ، فمن منَّا رأى الهواء؟

وهل نقول : إنَّه لا هواء لأنَّـنا لا نراه ، ومن ثَمَّ كان القدماء من العلماء على بصيرةٍ كذلك حين أطلقوا هذه القاعدة العلمية المشهور التي تقول : (عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود) .

• ثالثًا : حقائق تتعلق بالموت

١- المفهوم الصحيح للموت :ما الموت؟ أهو عدمٌ بعد وجود أم انتقال من حياةٍ إلى حياةٍ أُخرى؟

الموت ليس عدمًا ، ولعل هذا التصور سرى إلينا عندما شاع بيننا بأنَّ فلانًا حُكم عليه بالإعدام .

الموت : انفصالٌ بين ثنائية الروح والجسد ، عندما تنفصل الروح عن الجسد يتحقق ما سماه الله بالموت ، والروح بعد الانفصال موجودةٌ ، كل الذي حدث أنَّـها بعد أن كانت محبوسة في هذا القفص الجسدي ردحًا من الزمان طال أم قصر خرجت إلى عالمٍ آخر ، هذه الثنائية تستمر ولا تزول ، كل ما في الأمر أنَّ الأمر قد انعكس .

أرأيتم إلى الشمس في كبد السماء ، ثم نراها في مشرقها ثم في مغربها تجوب الآفاق ، هي منفصلةٌ عن الأرض ، لكنَّ أشعتها متصلة بها ، كذلك الـروح أشبه ما تكون بالشمس منفصلة عن الجسد ، لكنَّها متصلة به بأشعتها .

وعندما تنطلق الروح إلى الآفاق الرحبة التي تخرج إليها من هذا القفص الجسدي تنتعش بعض الشيء ، ومعنى ذلك : أنَّ الروح تنتظر الساعة التي تخرج فيها من هذا القفص الجسدي ، والبيان القرآني يقول : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾

﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾ (القيامة:٢٦-٢٧) أي : قال مَنْ يُعيد له الحياة ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ (القيامة:٢٨) أي أيقن المحتضر أنّه سيفارق الدنيا لمعاينته ملك الموت .

ولو كان الموت عدمًا ؛ فما معنى قوله تعالى : ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ (القيامة:٣٠) ، وقوله : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ (العلق:٨)؟

٢- ملك الموت وقبضه الأرواح :

أولاً : الموت حقيقة مشاهدة محسة ، وليس من الغيبيات في شيء ، وهو كما يقول شيخنا البوطي : «قصة الحقيقة الكبرى في هذا الوجود ، الحقيقة التي يسقط عندها جبروت المتجبرين وعناد الملحدين ، وطغيان البغاة والمتألهين ، إنَّها الحقيقة التي تمد صفحة هذا الوجود المائج بغاشية الانتهاء والفناء ، وتصبغ الحياة البشرية كلها بصبغ العبودية والذل لقهار السماوات والأرض ، حقيقة تسربل بها طوعًا أو كرهًا العصاة والطائعون ، والرؤساء والمتألهون ، والرسل والأنبياء ، والمقربون والأصفياء ، والأغنياء والفقراء ، وأرباب العلم والاختراع .

إنَّها الحقيقة التي تعلن على مدى الزمان والمكان ، وفي أذن كل سامع وعقل كل مفكر : أنَّ لا ألوهية إلا لذاك الذي تفرد بالبقاء ، فهو الذي لا مرد لقضائه ولا حدود لسلطانه ، ولا مخرج عن حكمه ، ولا غالب على أمره»[1].

وإذا كان للموت حقيقة مشاهدة إلا أنَّ ثمت أمورًا تحيط به لا مجال للعلم بها إلا عن طريق الذي خلق الموت ؛ إذ إنَّها لا تنكشف إلا لمن وقع في سياق الموت ، وأخذ يُعاني من سكراته .

ثانيًا : لا ريب أنَّ المحيي والمميت هو الله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر:٤٢) ، ولكن اقتضت حكمته عزَّ وجلَّ أن يكل قبض الأرواح إلى واحدٍ من

(١) كبرى اليقينيات ، ص ٣٠٦ .



ملائكته المقربين ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (السجدة:١١) [1].

وهنا قد يثور سؤال : هل لملك الموت أعوان من الملائكة يُعالجون نزع الأرواح من أجسادها أم الأمر كله موكول إليه وحده؟

ذهب الجمهور من العلماء إلى أنَّ لملك الموت أعوانًا كثيرين من الملائكة ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٢٨) ، وقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (الأنعام:٦١) ، وقال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الأنعام:٩٣).

وقوله : ﴿ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ استعارة بديعية حيث شبه ما يعتورهم من كربة الموت وغصته بالذين تتقاذفهم غمرات الموج ولججه ، فملك الموت يقبض والأعوان يُعالجون ، والله ـ تعالى ـ هو الذي يزهق الروح .

إنَّ متفرقات الأحاديث دلت على أنَّ الإنسان كلما كان أصلح أثناء حياته كان ملك الموت به أرفق ، وكان الموت عليه أهون ، وكلما كان أوغل في السوء والعصيان أثناء حياته كان الملك في معالجته أغلظ ، وكان الموت عليه أشد ، على أنَّ هذا ليس مطردًا .

وموعدنا مع هذا الذي ينكر هذه الحقيقة عندما يقع في سكرات الموت ، وإذا كان فينا من يستوحش الكلام عن الموت ، فما الفائدة؟

---

(١) كبرى اليقينيات ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .



• رابعًا : سؤال القبر ودليله

إذا مات الإنسان أرسل الله إليه ملكين يسألانه عن الدين ، وعن علمه بهذا الرجل الذي سمع عنه ، فمن ثبته الله بالقول الثابت ، ومات على الحق ، وختم له بالحسنى ألهمه الله الجواب على سؤال الملكين ، ومن لم يكن معتصمًا بحبل الله ملأ الله قلبه فزعًا منهم ، وغاب عن فكره الجواب .

وغنيٌّ عن البيان هنا أنَّ التجربة والمشاهدة ، أي الدليل المادي لا دخل له في هذا المقام ، بل المقام هنا يُعلم بالسماع من الخبر الصادق .

روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك أنَّ النبي ﷺ قال : **« إِنَّ الْعَبْدَ ، إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ » قَالَ : « يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ » قَالَ : « فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ ، فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ » قَالَ : « فَيُقَالُ لَهُ : انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ » قَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ : « فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا »**[1] .

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ : **« الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ : يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾** (إبراهيم:٢٧) »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الجنائز ـ باب ما جاء في عذاب القبر رقم الحديث (١٣٧٤) ، ومسلم في صحيحه ـ كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها ـ بَابُ عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ عَلَيْهِ ، وَإِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَالتَّعَوُّذِ مِنْهُ رقم الحديث (٢٨٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب قوله : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (إبراهيم:٢٧) رقم الحديث (٤٦٩٩) عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ .

وهنا أمران :

الأول : إسناد السؤال إلى القبر جارٍ على وجه التغليب ، وإلا فهو ثابتٌ بالنسبة لكل من مات سواء دُفن في القبر أمّ غرق في البحر أم أكلته السباع أم التهمته النيران .

الثاني : فإن قيل : كيف يتم السؤال والجواب في غير القبر؟ قلنا : الأمر داخلٌ في حيز الممكنات وليس من قبيل المستحيلات .

غاية الأمر أنَّ من الممكنات أموراً لم نشاهدها ولم نتعود على تصورها وهضم كيفيتها ، ومنها ما ذللته المشاهدة والرؤية المستمرة ، يتخيل الإنسان لأول وهلةٍ أنَّ الأول مستحيلٌ ، والثاني وحده ممكن .

فليس عسيراً على الله ـ جلَّ جلاله ـ أن يعكس الحياة مرةً أخرى على ذرات الجسم سواء كانت مجتمعة في قبر ، أم موزعة في فلاة ، أم متفرقة في بطن سبع ، فيعي بذلك السؤال والجواب ، ويرى الملك الذي يسأله ويكلمه .

وليس ثمة مطمع في أن تعلم كيفية ذلك تحليلاً ؛ إذ إنَّ حقائق ما بعد الموت متعلقة بنظام آخر مختلف كل الاختلاف عن نظام هذا العالم المرئي للأحياء .

ولننقل لك في بيان هذه المسألة ما يقوله الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ : «... إنَّ هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من علم الملكوت ، أما ترى الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل ، وما كانوا يشاهدونه ، ويؤمنون بأنّه عليه السلام يشاهده ، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهمُّ عليك ، وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت؟!»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٥٠٠ ، ويراجع : كبرى اليقينيات ، ص ٣١١ .



• خامسًا : عذاب القبر ونعيمه

العمدة في ذلك خبر الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (غافر:٤٦) .

ففي هذه الآية نوعان من العذاب : الأول : قبل يوم القيامة وهو النار التي توقد في الغدو والعشي ، والثاني : بعد يوم القيامة وهو العذاب الأكبر ، وواضحٌ من الآية أنَّ النوع الأول يقع في القبر لأنَّه يحدث في الغدو والعشي ، وقبل الساعة .

وممَّا يدل على عذاب القبر قوله ﷺ وقد مرَّ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ : « **إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ مِنْ كَبِيرٍ** » **ثُمَّ قَالَ : « بَلَى أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ ، وَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ » قَالَ : ثُمَّ أَخَذَ عُودًا رَطْبًا ، فَكَسَرَهُ بِاثْنَتَيْنِ ، ثُمَّ غَرَزَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى قَبْرٍ ، ثُمَّ قَالَ : « لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا »**[١] .

يقول القاضي عضد الدين الإيجي (٧٥٦هـ) في عذاب القبر : « هذا والأحاديث الصحيحة الدالة عليه أكثر من أن تُحصى بحيث تواتر القدر المشترك » . اهـ[٢] .

ويقول في موضع آخر : « إحياء الموتى في قبورهم . . . . وعذاب القبر للكافر والفاسق كلها حق عندنا ، واتفق عليه سلف الأمة » . اهـ[٣] .

أمَّا إنكار عذاب القبر من أصله فهو مزلقٌ إلى الضلال لِمَا ثبت من الدليل القاطع فيه كما علمت .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الجنائز ـ باب عذاب القبر من الغيبة والبول رقم الحديث (١٣٧٨) ، ومسلم في صحيحه ـ كتاب الطهارة ـ بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى نَجَاسَةِ الْبَوْلِ وَوُجُوبِ الاسْتِبْرَاءِ مِنْهُ ، رقم الحديث (٢٩٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما .

(٢) شرح المواقف ٢/٤٥٠ .

(٣) المرجع السابق ٢/٤٥١ .



وذهب أهل السنة والجماعة إلى أنَّ العذاب واقعٌ على الروح والجسد ؛ إذ ظاهر النصوص تقضي بذلك ، ومن ثَمَّ فلا حاجة إلى لعبة التأويل ، فقد ثبت في الصحيح أنَّ الرسول ﷺ وقف على القليب الذي قلبت فيه جثث المشركين يوم بدر، وأخذ يكلمهم قائلاً : إنَّا ﴿ **قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا** ﴾ (الأعراف:٤٤) .

ثم قال لعمر حين رآه متعجبًا من مخاطبة تلك الأجداث : والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

والسؤال : كيف السبيل إلى أن يرى الإنسان في الموت نعيمًا مقيمًا؟

والجواب : في الخطوات التالية :

أولاً : اعلم أنَّك عبد منفعل بكل الطاقات التي حُشيت في كيانك ، هذه الطاقات دخلت في كيانك من حيث لا تعلم ، وغدًا تودعك ـ أيضًا ـ من حيث لا تعلم .

ثانيًا : سل نفسك : ما مهمتك تجاه هذا الخالق العظيم؟ أدين له بالعبودية قدر المستطاع ، فإن كنت على ذلك عندما تدنو منك ساعة الموت ، فسوف يريك الباري ـ سبحانه وتعالى ـ ما يبشرك .

ووقع هذه البشارة كوقع المخدر تتناقص معه آلام الموت ، وتتضاءل أمام عينيك قيمة الحياة الدنيا .

ثالثًا : من أعرض عن هويته ، وجعل من شهواته ورغباته معبوده ، واستمر على ذلك ، ودنت منه ساعة الموت يريه الباري ما أعده له من الآلام والنكبات .

وأخيرًا : ألطاف الله تتغلب على سكرات الموت ، لكن تعرض أنت لألطاف الله .

• سادسًا : وَهْمُ التناسخِ

لا ريب أنّه يلزم لزومًا بيّنًا من سؤال الملكين وعذاب القبر بطلان التناسخ ، ولا ريب - أيضًا - أنَّ السؤال والعذاب واردان على روح الميت ، ومن ثمَّ فالروح مشغولة بصاحبها ، محبوسة عليه ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر:٣٨) .

ولا يمكن أن تنصرف مولية عنه لتسكن جسدًا آخر تستقبل فيه سلوكًا جديدًا ووجودًا آخر بديعًا .

لا يمكن في منطق العقل أن يجتمع الإيمان بتناسخ الأرواح ، والإيمان بما يكون بعد الموت من السؤال والعذاب ، فهما متناقضان ، والأمور الغيبية لا سلطان للعقل عليها ما دام بينه وبينها حجاب .

• سابعًا : أشراط الساعة الكبرى

للساعة علامات كبرى ، وهي :

١- **ظهور الدجال :** وننبّه إلى أنَّ الدجال لقبٌ لُقِّب به لكثرة تدجيله وكذبه ، وهو رجل يهودي الأصل من جهة المشرق ، يظهر في الناس في مسوح الصالحين التقاة ، ويدَّعي الألوهية ويتبعه خلقٌ كثيرٌ .

وقد فاضت السنة بالتنبيه إليه والتحذير منه ، من ذلك ما رُوي : عن حُذَيْفَةَ ابْنِ الْيَمَانِ أنَّ عُقْبَةَ قال له : حَدِّثْنِي مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فِي الدَّجَّالِ قَالَ : « إِنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ ، وَإِنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَارًا ، فَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ مَاءً ، فَنَارٌ تُحْرِقُ ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ نَارًا ، فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ ، فَلْيَقَعْ فِي

الَّذي يَرَاهُ نارًا ، فإِنَّهُ مَاءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ» ، فَقَالَ عُقْبَةُ : وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ تَصْدِيقًا لِحُذَيْفَة[1] .

وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ، قَالَ : ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا ، فَقَالَ : «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً ، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ ، فَقَالَ : «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى ابْنِ قَطَنٍ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالاً ، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا» قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ : «أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، يَوْمٌ كَسَنَةٍ ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ : «لَا ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ : «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا ، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا ، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ ، فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكِ ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا ، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ

(١) أخرجه مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب ذكر الدجال وصفته وما معه رقم (٢٩٣٥) .



الْغَرَضِ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ ، يَضْحَكُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ ، فَيَقْتُلُهُ»[1] .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، قَالَ : قَالَ لِي ابْنُ صَائِدٍ : وَأَخَذَتْنِي مِنْهُ ذَمَامَةٌ : هَذَا عَذَرْتُ النَّاسَ ، مَا لِي وَلَكُمْ؟ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ أَلَمْ يَقُلْ نَبِيُّ اللهِ ﷺ : «إِنَّهُ يَهُودِيٌّ» وَقَدْ أَسْلَمْتُ ، قَالَ : «وَلاَ يُولَدُ لَهُ» وَقَدْ وُلِدَ لِي ، وَقَالَ : «إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِ مَكَّةَ» وَقَدْ حَجَجْتُ ، قَالَ : فَمَا زَالَ حَتَّى كَادَ أَنْ يَأْخُذَ فِيَّ قَوْلُهُ ، قَالَ : فَقَالَ لَهُ : أَمَا ، وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْآنَ حَيْثُ هُوَ ، وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ ، قَالَ : وَقِيلَ لَهُ : أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ فَقَالَ : لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ[2] .

ومما يستفاد من هذه الأحاديث أنَّه يهودي الأصل ـ كما قلنا ـ وأنَّ عينه اليمنى عوراء جاحظة ، وأنَّه مكتوبٌ على جبهته كافر ، يراها كل مسلم ، وينتهي أمره بأن يقتله سيدنا عيسى عليه السلام .

ولعلَّ سائلاً يسأل فيقول : كيف يكون كذلك ، ويُجري الله على يديه تلك الآيات الباهرة كإحياء الموتى؟ والجواب : إنَّ ذلك اختبارٌ لمن يعاينونه ، وفي بيان ذلك يقول ابن حجر عليه الرحمة : «فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُجْرِيَ اللَّهُ الْآيَةَ

---

(١) أخرجه مسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب ذكر الدجال وصفته وما معه رقم (٢٩٣٧) .

(٢) أخرجه مسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب ذكر الدجال وصفته وما معه رقم (٢٩٢٧) .

عَلَى يَدِ الْكَافِرِ ؛ فَإِنَّ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَكَيْفَ يَنَالُهَا الدَّجَّالُ وَهُوَ كَذَّابٌ مُفْتَرٍ يَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ؟ فَالْجَوَابُ : أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْفِتْنَةِ لِلْعِبَادِ ؛ إِذْ كَانَ عِنْدَهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُبْطِلٌ غَيْرُ مُحِقٍّ فِي دَعْوَاهُ ، وَهُوَ أَنَّهُ أَعْوَرُ مَكْتُوبٌ عَلَى جَبْهَتِهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ ، فَدَعْوَاهُ دَاحِضَةٌ مَعَ وَسْمِ الْكُفْرِ وَنَقْصِ الذَّاتِ وَالْقَدْرِ ؛ إِذْ لَوْ كَانَ إِلَهًا لَأَزَالَ ذَلِكَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَآيَاتُ الْأَنْبِيَاءِ سَالِمَةٌ مِنَ الْمُعَارَضَةِ فَلَا يَشْتَبِهَانِ» ثم قال : «وَفِي الدَّجَّالِ مَعَ ذَلِكَ دَلَالَةٌ بَيِّنَةٌ لِمَنْ عَقَلَ عَلَى كَذِبِهِ ؛ لِأَنَّهُ ذُو أَجْزَاءٍ مُؤَلَّفَةٍ وَتَأْثِيرُ الصَّنْعَةِ فِيهِ ظَاهِرٌ مَعَ ظُهُورِ الْآفَةِ بِهِ مِنْ عَوَرِ عَيْنَيْهِ ، فَإِذَا دَعَا النَّاسَ إِلَى أَنَّهُ رَبُّهُمْ ، فَأَسْوَأُ حَالَ مَنْ يَرَاهُ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُسَوِّيَ خَلْقَ غَيْرِهِ وَيَعْدِلُهُ وَيُحَسِّنُهُ وَلَا يَدْفَعُ النَّقْصَ عَنْ نَفْسِهِ ، فَأَقَلُّ مَا يَجِبُ أَنْ يَقُولَ يَا مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ صَوِّرْ نَفْسَكَ وَعَدِّلْهَا وَأَزِلْ عَنْهَا الْعَاهَةَ ، فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ الرَّبَّ لَا يُحْدِثُ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا فَأَزِلْ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْكَ» . اهـ[1] .

٢- نزول عيسى عليه السلام :

عيسى ابن مريم رسول الله ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١) .

عقيدتنا فيه : ما جاء في الوحي كتابًا وسنةً مما هو قطعي الدلالة ، فهو لم يقتل ولم يصلب ، بل رفعه الله إليه ، وهو حيٌّ .

ومن أشراط الساعة الكبرى : أنَّه ينزل فيقيم القسط ، ويحكم بالعدل ، ويقتل الدجال ، ومن الأدلة على ذلك آيتان صريحتا الدلالة قطعيتها في كتاب الله :

---

(١) فتح الباري ١٣/١٠٣ .

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (النساء:١٥٧-١٥٩)

ودلالتها : أنَّه لا يبقى أحدٌ من أهل الكتاب بعد نزول سيدنا عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام ، فالضمير في قوله : ﴿ بِهِۦ ﴾ عائد كما هو بيِّنٌ من السياق إلى عيسى ، وهذا نصٌّ قاطعٌ على أنَّه عليه السلام حيٌّ لم يمت بعد .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (الزخرف:٥٧-٦١) .

ووجه دلالتها : أنَّ الضمير في قوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ عائد إلى عيسى الذي تتحدث الآيات عنه ، والمعنى : أنَّ عيسى ابن مريم لدليلٌ على قيام الساعة ، وإنَّما يكون كذلك بنزوله من السماء حكمًا مقسطًا عادلاً ، وتدل له القراءة السبعية الأخرى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أي : إشارة ورمز لها .

أمَّا الأحاديث فكثيرةٌ جدًا بلغت مبلغ التواتر اللفظي ، من ذلك :

ما رواه مسلم عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -



حَكَمًا مُقْسِطًا ، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ» ، وَحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ : اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ** ﴾ (النساء:١٥٩) الْآيَةَ[1] .

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ ، قَالَ : اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ ، فَقَالَ : «مَا تَذَاكَرُونَ؟» قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ ، قَالَ : «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ - فَذَكَرَ - الدُّخَانَ ، وَالدَّجَّالَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»[2] .

ولا نلتفت في هذا المقام لما سطرته بعض الأقلام التي تنتمي إلى مدرسة الأستاذ الإمام محمد عبده مما يغاير ما أوردناه عن عقيدتنا في سيدنا عيسى عليه السلام؛ لأننا نرى أنّـه يحمل في تضاعيفه عوامل هدمه وبطلانه ، وأكثر ما يتعلقون به في هذا الصدد .

٣- ظهور يأجوج ومأجوج :

هذا المصطلح (**يأجوج ومأجوج**) رمزٌ لغوي لأمةٍ من الناس يظهرون بعد نزول عيسى ابن مريم عليه السلام ، يرتكبون المآثم ، ويجاهرون بالمعاصي ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويفسدون في الأرض .

---

(١) أخرجه مسلم - كتاب الإيمان - بَابُ نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ حَاكِمًا بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ رقم (١٥٥) .

(٢) أخرجه مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب ذكر الدجال وصفته وما معه ، رقم (٢٩٠١) .

هذا مجمل ما تعطيه الأدلة صريحة الدلالة قطعيتها من كتابٍ وسنةٍ عن هؤلاء الناس ، وهم إحدى علامات الساعة الكبرى التي حدثنا القرآن الكريم عنها ، وتضافر مع القرآن صحيح الخبر عن رسول الله .

وليس من معنيات البحث إلغاء العقل والركد وراء بعض الأقلام التي تروج لمفاهيم عن يأجوج ومأجوج واهية لا أساس لها من خبرٍ صحيحٍ .

أمَّا الآيات التي تستند إليها ، فمنها قوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ** ﴾ (الأنبياء:٩٦) ، وقوله تعالى : ﴿ **قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا** ﴾ (الكهف:٩٤) .

وأمَّا الأحاديث ، فمنها :

ما رواه مسلم وغيره عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ : « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشَرَةً ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ »(١) .

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ ، قَالَ : اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ ، فَقَالَ : « مَا تَذَاكَرُونَ؟ » قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ ، قَالَ : « إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ - فَذَكَرَ - الدُّخَانَ ، وَالدَّجَّالَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ ، وَيَأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ،

---

(١) أخرجه مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة - بَابُ اقْتِرَابِ الْفِتَنِ وَفَتْحِ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ رقم (٢٨٨٠) .

وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»[1] .

٤- دابة الأرض :

يصدق هذا المصطلح على دابةٍ تخرج من الأرض تكلم الناس بمستوى إيمانهم أو نفاقهم أو كفرهم ، كلٌّ بحسب الطائفة التي هي في باطنه وجوهره .

وبظهور الدابة لا تقبل من أحد دعوى الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (النمل:٨٢) .

٥- طلوع الشمس من مغربها :

وهذه العلامة هي من العلامات التي تفردت السنة بذكرها صراحةً ، روى البخاري عن النبي ﷺ حديثًا طويلاً عن أشراط الساعة ، وفيه : «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا ، فَذَاكَ حِينَ : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ (الأنعام:١٥٨)»[2] .

• ثامنًا : يوم القيامة وأحداثه :

يوم القيامة هو اليوم الذي تنعدم معه الحياة من الكون ، وتنهار عنده نظامه ، وتتبدل معالمه ، وتتناثر أجزاؤه ، ثم يمتد هذا اليوم إلى حشر الأجساد وإعادة أرواحها إليها ثم إلى ما يتبع ذلك من طول حساب وميزان واجتياز صراط إلى المستقر الأخير .

---

(١) سبق تخريجه ص ١٥٦ .

(٢) أخرجه البخاري - كتاب التفسير - بَابُ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا ﴾ (الأنعام:١٥٨) - رقم (٤٦٣٥) .



وهل يمكن أن تنتهي حياة الناس دون أن تتبين فيها موازين العدالة؟ الجواب : لا ، إذ لابد من فصل آخر تتكامل فيه الحقيقة وفيه ينادي منادي الله : ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (غافر:١٧) .

كيف تقوم الساعة وتنعدم الحياة ؟ :

حسبك لمعرفة ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (الزمر:٦٨) ، وقوله سبحانه : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (يس:٤٩-٥٠) ، فهناك صور ، والصور هو البوق ، وهناك نفخ يكون في الصور تصعق له الأرواح إلا من شاء الله ألا يصعق بذلك ، ويحتمل أن يكون المراد بهم أرواح الأنبياء والشهداء أو أرواح بعض الملائكة .

تنبيه :

لا مدخل لتهارج الناس وحروب الأمم مع بعضها وما يعقب ذلك من أسلحة فتاكة مدمرة ـ لا مدخل لشيء من ذلك في قيام الساعة .

الأدلة على قيام الساعة :

قيام الساعة هو أخطر الأخبار الغيبية التي أخبر عنها الخالق على الإطلاق ، وذلك لشدة الغرابة والبعد عن مألوف الناس وتصوراتهم من حيث إنه اليوم الذي يقف فيه الإنسان ذليلاً ضعيفاً بين يد خالقه يسأله عن النقير والقطمير ، ومن حيث إن مدار وجود هذا الإنسان كله كان تهيئة لملاقاة خالقه ، ومن هنا يظل القرآن يخبر الإنسان عنه وينذره إياه في تأكيد متوال لا ينقطع وبتفنن عجيب في النقل

والربط نظماً وأسلوباً ينبه الله الناس إلى يوم القيامة ، وذلك لأن الغطاء الذي قال عنه البيان القرآني : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق:٢٢) .

وبمقدار ما يرى الإنسان غرابة هذا الأمر بمقدار ما يتحدث عنه القرآن ليزيل الغرابة .

انظر إلى هذه الآية الكريمة وتأمل في المؤكدات الشديدة التي كأنما غمست الآية فيها غمساً : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء:٨٧) وانظر إلى هذه الآية الأخرى التي سيقت مساق الحجاج والنقاش لتبديد ما يطوف في ذهن الإنسان من عوامل الريب والشكوك حول إمكان وقوع هذا الأمر بأسلوب معجز يتجلى فيه سلطان الربوبية : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ (مريم:٦٦-٦٨) وتأمل هذه الآيات التي صاغها الخالق بأسلوب تتجلى فيه الحسرة والأسى على الناس الذين أسكرهم واقع ما هم فيه عن حقيقة ما سيرونه عما قليل فما تنفعهم عظة ولا تؤثر فيهم ذكرى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:١) ويؤكد هذه الحقيقة بطريقة تبرز العظمة الإلهية : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) .

وأحياناً أخرى يلفت العقل إلى ما ينبغي أن يتنبه إليه فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ

إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ (الحج:٥) وفي حالات أخرى يأتي الحديث عن يوم القيامة بأسلوب تصويري ينقل الناس إلى جو الأحاديث كأنهم يشاهدونها : ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ (إبراهيم:٤٢) وقوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾ (يس:٥١)

كل هذا من أجل أن يحقق هذا التوكيد الاستغراب لدى الإنسان ، وبتتبع هذه الأدلة نجد أن مما لا يتصوره العقل أن تكون قصة الإنسان تبدأ من غلاف الولادة وتنتهي بغلاف الموت وإلا كان العبث ، والعبث من أجلى صور المحالات بالنسبة لله ـ عز وجل .

أول أحداث يوم القيامة : البعث :

تذكرة السفر إلى الدار الآخرة تنص على أن هناك عدة مقاطع في سفرنا إلى الدار الآخرة ، المقطع الأول : أن نمكث في عالم البرزخ إلى البعث ، والمقطع الثاني : البعث والوقوف بين يدي الله ـ عز وجل .

والبعث : هو إحياء الموتى وإعادة أرواحهم إلى أجسادهم كما كانت في الدنيا لمحاسبتهم ؛ فالبعث عبارة عن مجموع أمرين ، الأول : عودة الأجسام إلى ما كانت عليه قبل الموت ، والثاني : دخول الأرواح في الأجسام مثلما كان عليه الأمر في الحياة الدنيا .

وإنكار البعث نوع من الإلحاد أو فرع من إنكار وجود الله وإنكار قدرته الشاملة ، إن السفلة الذين التصقوا بالتراب وعاشوا له لن يرتفعوا عن مستوى طينتهم المادية :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ (الأعراف:٤٠) .

فالحق الذي لا ريب فيه أن كثيرا من مذاهب المفكرين وآراء الفلاسفة الماديين لا تعتمد على ركيزة محترمة من العلم اليقيني القاطع ، بل معظمها يشبه إلى حد كبير قصائد الشعراء الهائمين في أودية الخيال ، أو هي تصوير لنزعات شخصية أو أمراض نفسية ، ولكنها لا تقبل بحال من الأحوال في ساحة العقائد اليقينية .

ونحن في مقامنا هذا نرفض إخضاع الحكم فيها للجدل والسفسطة والتخمينات .

وفي الرد على هؤلاء يقول شيخ الإسلام والمسلمين الإمام الأكبر أحمد الطيب في بحث طويل : « وتتلخص شبهات الماديين المنكرين للبعث فيما يلي :

١- استبعاد أن تتحول ذرات الجسد - بعد أن صارت ترابًا - إلى إنسانٍ سويٍّ يسمع ويبصر ويعي ويعقل كما كان في الحياة الدنيا ، وبعبارةٍ موجزةٍ: استبعاد أن تتحول المادة الترابية إلى كائنٍ حيٍّ .

٢- استبعاد إيجاد الشيء بعد عدمه ؛ فالشيء إذا عدمت ذاته وفنيت فمن المستحيل - في نظرهم - أن يوجد مرةً ثانيةً .

ويعتقد الماديون أنَّ النفس الإنسانية تفنى بالموت ، مثلها في ذلك مثل الجسد ، فلا فرق - فيما يرون - بين النفس وبين الجسد في أنَّ كلاً منهما يفنى وينعدم بالموت ، وهذه الشبهة مترتبةٌ على أصلٍ مغلوطٍ في فلسفة الماديين ؛ مؤداه : أنَّ الإنسان عبارة عن البدن المركب من الأعضاء المادية ، وليس أمرًا آخر وراء ذلك ، فإذا انعدمت الأعضاء انعدم الإنسان بكل أبعاده ، ولم يبق هناك شيء يبعث أو يُخلق خلقًا جديدًا بعد الموت :

﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (الرعد:٥)

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ (ق:٣)

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴾ (النازعات: ١٠-١١)

﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (يس: ٧٨)

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣٥-٣٧) ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (الإسراء: ٤٩).

أدلة القرآن وردُّه على منكري البعث :

وأول ما نلاحظه من استقراء آيات القرآن الكريم في تقرير حقيقة البعث أنَّه ـ وهو يصور شبهات الماديين المنكرين ـ ينعي عليهم نظرتهم الضيقة وأحكامهم المتسرعة في التفكير ، وأنَّهم لم ينكروا البعث إلا لأنَّهم حصروا عقولهم ومداركهم في ظواهر المحسوسات وظواهر الأسباب والمسببات ، وأنَّهم لو تخطوا بعقولهم هذا المجال الحسي الضيق لما وسعهم إلا الإيمان بالله والاعتراف بقدرته الشاملة .

وكلُّ ما يقوله الماديون ويحتجون به في تكذيب البعث ليس في نظر القرآن إلا ظنًّا وتخييلاً ، وليس من العلم لا في قليلٍ ولا في كثيرٍ ، وإنَّما هو خلطٌ نشأ في قياسٍ فاسدٍ قاسوا فيه الحياة الأخرى على الحياة الدنيا برغم اختلاف الحياتين اختلافًا جذريًا في كل مظاهرهما .

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣ وَقَالُوا۟ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية: ٢٣-٢٤).



﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الرعد:٥) .

والقرآن الكريم إذ يثبت حقيقة البعث يعدُّها من أوضح الحقائق التي تثبت بالوحي والعقل معًا ، وقد وصفه القرآن الكريم أكثر من مرةٍ بأنّه ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (البقرة:٢) ، وأنَّ المنكرين لا يستطيعون أن يقدموا حجةً واحدةً على إنكاره .

وهكذا يثبت القرآن حقيقة البعث من جانبين :

(أ) جانب سلبي : تولى فيه القرآن بيان إفلاس المكذبين للبعث وعجزهم عن إقامة الدليل على إنكاره .

(ب) جانب إيجابي : تولى فيه القرآن إيراد الأدلة الواضحة التي ترد على المنكرين ، وتُثبتُ البعث في ذات الوقت .

هذا ونلاحظ أنَّ القرآن الكريم كان يواجه طائفتين من منكري البعث :

- طائفة اعترفت بوجود الخالق ، لكنَّها تُنكر قدرته على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم .
- وطائفة لم تؤمن بالله أصلاً ، وترتَّب عليه إنكارها للبعث .

والطائفة الأولى : برغم إيمانها بالله كانت تكذب بالبعث ، وتعتبره نوعًا من الأساطير التي ترددت على أسماعهم وأسماع آبائهم من قبل ، وأنَّ ما وعدهم به الأنبياء والمرسلون من بعث الموتى لم يحدث ولا مرةً واحدةً .

والقرآن الكريم في ردِّه على هذه الفرقة يبين لهم التناقض الذي يقعون فيه ؛ حيث يؤمنون بالله ويعترفون بأنه مالك الأرض ومن فيها ، والسموات ومن فيها ، ويقرُّون بأنَّ أمر كلِّ شيءٍ في يده وفي قدرته ، ثم يستكثرون على هذه القدرة إحياء الموتى وبعثهم .



إنَّ الذي يعترف بصلاحية القدرة الإلهية لهذه العظائم ، ثم ينفي صلاحيتها للبعث يناقض نفسه من حيث يدري أو لا يدري : ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (المؤمنون:٨٢-٩٠).

أمَّا الطائفة الثانية : وهم الملحدون ؛ فإنَّ القرآن كان يرد على شبهاتهم تفصيلاً ، ويمكننا أن نجمل أدلة القرآن في هذا المقام فيما يلي :

١- دليل النشأة الأولى على صيرورة التراب إنسانًا حيًّا مرةً ثانيةً :

وفيه يرد القرآن على الشبهة الأولى من شبهات المنكرين ، وهي استبعاد تحول الجسد الذي صار ترابًا إلى كائنٍ حيٍّ ، والقرآن هنا يلفت أنظارهم إلى أنَّ البعث ما هو إلا صورةٌ أُخرى من النشأة الأولى للإنسان ، وإذا اعترف المنكرون للبعث بأنَّ أصلهم ومبدأ وجودهم ترابٌ ومادةٌ صمَّاءُ لا حياة فيها ولا روح ، ثم صاروا كائنات حية لها عقل وروح وسمع وبصر وإدراك ؛ بعبارة مختصرةٍ : إذا اعترفوا بأنَّ الإنسان في نشأته الأولى كان ترابًا ، ثم صار كائنًا حيًّا ، لزمهم الاعتراف بنفس الصورة بعد الموت ، والتصديق بعودة الذرَّات الترابية إلى كائن حيٍّ؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى

الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج:٥).

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (الإسراء:٤٩-٥١).

٢- دليل النشأة الأولى على إحياء الجسد الفاني مرةً ثانيةً :

وهذا الدليل يواجه فيه القرآن الشبهة الثانية للمنكرين ؛ وهي شبهة استبعاد عودة ما فني وانعدم وتلاشى إلى الحياة مرةً ثانيةً .

ووجه الاستدلال هنا هو أنَّ النشأة الأولى للإنسان هي - في صورتها البسيطة - نشأةٌ من عدمٍ ، وهذه حقيقة يعترف بها الناس جميعًا ، فكل إنسان يعلم علمًا يقينيًا أنَّ لوجوده بداية ، وأنَّه قبل هذه البداية كان عدمًا محضًا : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان:١) .

وإذا كان الأمر كذلك : فلماذا يقبل المنكرون وجود الإنسان من عدمٍ ، ويرفضون وجوده مرةً ثانيةً من عدمٍ؟ وأيُّ فرقٍ بين الوجودين بعد العدمين؟

وهنا ينبِّه القرآن إلى أنَّ الأحرى بالعقل الصحيح أن يصدق من أمر البعث أكثر ممَّا يصدق من أمر النشأة الأولى ؛ لأنَّه استفاد بالوجود الأول ملكة الاتصاف بالوجود ، ذلك لأنَّ النشأة الأولى يوجد فيها الإنسان من عدمٍ تامٍّ لم يكن للإنسان فيه أدنى شائبةٍ من ثبوتٍ أو وجودٍ ، أمَّا البعث فهو لا يزيد عن إعادة إنسانٍ كان موجودًا من قبل ، ولا شكَّ أنَّ الذي يقدر على إخراج شيءٍ من العدم المحض يقدر - من باب أولى - على إعادة هذا الشيء بعد عدمه ؛ إذ إعادة الشيء بعد وجوده أيسر بكثيرٍ من إبداعه من العدم :

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٦٦-٦٧).

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس:٧٨-٧٩).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الروم:٢٧)» . اهـ[١].

• حشر الأجساد وعودة الأرواح إليها :

الحشر هو المرحلة التي تلي مرحلة البعث من مراحل يوم القيامة ، والحشر كما يقول العلامة السعد : هو (سَوْق الخلائق جميعا إلى الموقف انتظاراً للحساب والحكم عليهم والقضاء بينهم)[٢].

ودليله من البيان القرآني القاطع : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (ق:٤٤) ، وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ (مريم:٦٨) ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٤٧) ويتضافر مع ذلك قوله ﷺ : « إنكم تحشرون حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وإن أول الخلائق يكتسي يوم القيامة إبراهيم الخليل ».

وقد أجمع أهل الملل والشرائع كلها على جواز حشر الأجساد ووقوعه ، وأنكر الفلاسفة وهم مع إنكارهم - ولكن للأرواح فقط لأن الأرواح لا تنعدم ولا تحلل بالموت ، وإنكار الفلاسفة حشر الأجساد مبني على قاعدتهم المذهبية (استحالة إعادة المعدوم) ومسألة هل يعاد المعدوم أو لا هي المدخل المنطقي

---

(١) مقومات الإسلام ، ص ١٥٢-١٥٧ .

(٢) شرح المقاصد ٢/٣٤٥ .



لمثبتي حشر الأجساد ومنكريه على السواء ، غير أن مذهب الفلاسفة في إنكار حشر الأجساد يصطدم مع ظواهر آيات القرآن والأحاديث الصحيحة اصطداماً مباشراً ، على أن علماء الكلام مختلفون أيضاً في عودة الأجسام : هل تعاد بعد عدمها وفنائها أو تعاد بعد تحللها إلى أجزاء وتفرق الأجزاء؟[1]

ومسك الختام في هذا المقام أن نقول : لا يستطيع العلم أن يصف لنا كيفية حشر الأجساد وعودة الأرواح إليها ، ذلك لأن العلم المادي محصور في البحث في القضايا التي تخضع للتجربة والمعاد الجسمي لم يتحقق بعد ، ومعنى ذلك أنه لم يوجد بعد القضية أو الموضوع الذي يستطيع العلم أن ينظر ويبحث فيه ، فمن العبث أن تسأل المجهر في المختبر عن تحليل ما لم يوضع تحته من صنوف المركبات ، كل ما نملكه أن نبدأ فنسأل : هل المعاد الجسمي يكون بعد انعدام الأجساد من الوجود أصلاً أو بعد تفتت أجزائها في طوايا الأرض أو بطون الحيتان أو أعماق البحار؟ لم يرد بهذا أي خبر قطعي عن الله ورسوله ﷺ ، لكن الذي يجب الجزم به هو أن كل شيء ما عدا الله قابل في حقيقته للوجود والعدم ؛ إذ إنَّ الوجود وارد عليه من الخارج وليس نابعًا من حقيقته ، سواء اعتراه بعد ذلك العدم فعلاً ، أو اعتراه التمزق والشتات والفساد ، لكن جمهور العلماء رجحوا القول الثاني وهو شتات الأجزاء وتفرقها ؛ إذ هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن:٢٦-٢٧) ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ (ق:٤) ؛ فهلاك الشيء يطلق على فساده ، ولا يشترط لإطلاق الهلاك الانعدام الكلي والفناء ، كذلك تقول : فني الثوب والعظم إذا أصبح كلا منهما أنكاثا وأجزاء متفرقة لا يستفاد منها لشيء ، ومما يؤكد أن المقصود بالفناء هو هذا الذي نقول بل خصوص المعنى فقط قوله

---

(١) يراجع : شرح المواقف ٢/٤٤٢ .



تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (الرحمن:٢٦) ؛ إذ المراد من قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (القصص:٨٨) ، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ معنيان : الأول : التلاشي والتفكك مع بقاء الذرات متناثرة ، والثاني : العدم . فإن قال متعالم المعنى الثاني لا يمكن علميا ؛ إذ الموجود لا ينعدم لأن القانون العلمي يقرر أن المادة لا تفنى إنما تتلاشي وتتفكك ولكنها لا تنعدم .

قلنا : من أين اقتبس هذا القانون؟ الجواب : من نظام الكون .

قلنا : هذا القانون صحيح لكن خارج دائرة الزمن الذي أخضع الله له هذا الكون، لكن عندما تحطم الدائرة الزمنية لهذا النظام عندما يطوي الله هذا النظام كله فالقانون يذهب أدراج الرياح[1] .

وكأني بكم تتساءلون كيف تعود الأرواح إلى أجسادها وهل بقيت الأجساد؟

والجواب : سأل المشركون رسول الله ﷺ عن ذلك فقال القرآن : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ (ق:٢-٤) أي : عرفنا أين ذهبت ذرات أجسامكم وكيف تلاشت وكيف اختلطت مع ذرات التراب؟ ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ (ق:٤) أي : سجل يحصي هذه الذرات ، وهذا القول بأن المادة تتلاشى وتتفكك ولكنها لا تنعدم ، فإذا كان الأمر كذلك فما الغرابة من تجميعها مرة أخرى؟ كما تجمع برادة حديد امتزجت بحفنة من التراب بواسطة قطعة من المغناطيس الجذاب .

في كل جسد موت ونشور يتكرران في كل ساعة من ليل أو نهار ، فهل نستغرب إذا قال الله : ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ (ق:١) لتبعثن ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ (ق:٢) لماذا تكون إعادة الخلق عجيبة أليس هو الخالق؟

---

(١) ينظر : كبرى اليقينيات ، ص ٣٤٥ بتصرف واختصار .

وكأنا فينا من يعجب ويستغرب أن يجتمع الناس جميعًا على صعيد واحد أحياء بعد ما ماتوا ، وهنا يقول الله لهؤلاء المتعجبين : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (ق:٤٤)، وقبل ذلك : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ (ق:٤٣) ، وفي كثير من الأحيان يعبر البيان القرآني عن هذه الحقيقة بكلمة الجمع فيقول : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (المرسلات:٣٨-٤٠) ويقول : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٢٥) وانظر إلى قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ (الكهف:٩٨) أي : جعل هذه الصور الذي أقيم سدا بين الناس وبين يأجوج ومأجوج منهدماً ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ (الكهف:٩٨)، ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ (الكهف:٩٩-١٠١) ، وكأنـي بكم تقولون : أي أرض تتسع لهذه الأجيال كلها؟

والجواب عن هذا الإشكال قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم:٤٨). فما الغرابة أنَّ الإله الذي خلق هذا الكون على هذا النظام يخلق كونا آخر وأرضا أخرى تتسع لهذه الأجيال جميعا ؛ فالفراغ لا يتناهى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (يس:٨١) .

● هول الموقف :

اعلم أولا أنه لا يجدي في تصوير حقيقة هذا الهول أي وصف يكتب أو حديث يتلى ، وحسبك أن تعلم أنه أهول من كل هول وأعظم من كل عظيم وأنه يجتاح



جميعا من ذلك ما قاله الله في مفتتح سورة الحج : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ (الحج:١-٢) وفي مفتتح سورة النساء إشارة إلى المبدأ ، وفي مفتتح سورة الحج إشارة إلى المعاد ، لذا ناسب أن يأتي الخطاب في السورتين الكريمتين إلى الناس جميعاً إذ جميعهم يشتركون في المبدأ والمعاد .

وصورة أخرى من هذا الهول كما جاء في سورة عبس : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٕٖ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٖ شَأْنٞ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس:٣٣-٣٧) ذهول ينتاب الناس فتتفكك عرى القربى بسبب الهول الذي يطوف بالناس .

هل من العقل أن يتجاهل الإنسان أو يتجاهل الناس هولا هم مقبلون عليه؟

وقد وصف رسول الله ﷺ طرفًا من هول الموقف فقال فيما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا» . قلت يا رسول الله : النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال : «الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» .

ومن أبرز الشدائد دنو الشمس من رؤوس الخلائق حتى تكون منهم بقدر ميل ، ويذهب العرق يسيح في الأرض سبعين باعا ، فمنهم من يبلغ العرق كعبيه ، ومنهم إلى ركبتيه ، ومنهم إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما حتى يتمنى الناس الانصراف ولو إلى النار ، وهنا نتساءل هل الناس كلهم يعانون من هذه الشدة؟ الجواب : لا . بدليل قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠١-١٠٣).

ومن هؤلاء الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ويكونون في مأمن من العذاب أولئك الأصناف السبعة الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ أنهم يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[1].

● **الحساب :**

وهو توقيف الله ـ تعالى ـ العباد على أعمالهم بعد البعث وسؤالهم عنها بكيفية يعلمها سبحانه وتعالى[2] ، وقد دل الخبر الإلهي القاطع أن هذا الحساب هو أهم وأعظم ما يراه الإنسان من أحداث يوم القيامة ، حتى إنه سبحانه وتعالى أطلق على يوم القيامة اسم يوم الحساب فقال : ﴿ **هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ** ﴾ (ص:٥٣) ، وقال : ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ** ﴾ (غافر:٢٧) .

ومن أجلى الآيات الدالة بشكل قطعي على محاسبة الله عباده يوم القيامة قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (البقرة:٢٨٤) وقوله : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴾ (الانشقاق:٧-٨)

أما عن طول الحساب على الإنسان وقصره وصعوبته وطوله ويسره فهو يختلف باختلاف الناس وتفاوت درجاتهم ، فمنهم من لم يستغرق الحساب بالنسبة إليه أكثر من فواق ناقة أي حلبها كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ومنهم من يتطاول عليه أمد ذلك ويشتد عليه الكرب ، ويتفاوت هؤلاء أيضا في ذلك حسب أحوالهم التي كانوا قد أدبروا عنها في الدنيا .

---

(١) ينظر : كبرى اليقينيات ، ص ٣٤٩ وما بعدها بتصرف واختصار .

(٢) ينظر : أساسيات العقيدة ليحيى هاشم ، ص ١١٧ .



واعلم أن الإيمان بالحساب يستلزم الإيمان بالكتب ، وهي صحائف بأسماء أصحابها تعطى إلى يمين كل منهم أو يساره قد سجل فيها ما كان اجترحه أو اكتسبه ، والله أعلم بكيفية هذه الصحائف ونوعها وكيفية الكتابة المسجلة عليها ، وحسبك أن تنصت في بيان هذا الأمر إلى هذه الآيات الباهرة ، ثم تخضع لها وتوقن بمضمونها : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجاثية:٢٧-٢٩) [(١)] .

• الميزان والوزن :

يجب الإيمان بالميزان وبوزن الأعمال[(٢)] ؛ إذ كلاهما مما أخبر الله عنه في محكم كتابه بعبارات واضحة صريحة لا تحتمل التأويل ، قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (الأنبياء:٤٧) ، ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف:٨).

فإن قيل كيف توزن الأعمال وهي أمور اعتبارية ؟

قلنا : تخلق بشكل أجسام لها ثقل وأبعاد ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام:٣١) .

فإن قيل ما الحاجة إلى الوزن والله ـ تعالى ـ أعلم بالأعمال بكميتها وكيفيتها؟

---

(١) كبرى اليقينيات ، ص ٣٠٦ بتصرف واختصار .

(٢) ينظر : مجرد مقالات الأشعري ، ص ١٧١ .



الجواب : لما قام نظام الحياة الدنيا على قانون الأسباب والمسببات اقتضت الحكمة أن ينسحب هذا القانون على وقائع ما بعد النشأة الثانية .

ولكي تنطق هذه الأعمال نفسها بحقيقة العدل والجزاء وربط مقدمات الحياة الدنيا بنتائجها يوم القيامة .

• الصراط والاجتياز عليه :

الصراط هو جسر عريض ممدود على جهنم أوله في الأرض المبدلة وآخره قبل الجنة ، وقد ورد في وصفه : (أنه دحض مزلة) ، ومعنى الدحض أنه مالس ، ومعنى المزلة أي يزلق عنه قسم من الناس إلى جهنم ، ويرده الناس أي يمر عليه الناس منهم من لا يدوس عليه بل يمرون في هوائه ، ومنهم من يمر كالبرق ، وبعضهم كطرفة عين ، وبعضهم يمشي عليه ، ثم الذين يمشون قسم ينجون ، وقسم يقعون في النار ، وأما الكفار من الأول يقعون .

وقد ورد في وصفه ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بلغني أي بلغه عن رسول الله ﷺ : «أنه أرق من الشعر وأحد من السيف» .

وليس المقصود بذلك أن حجمه كحجم الشعرة إنما المقصود بيان خطر المشي عليه ؛ لأن يسر المرور عليه أو عسره مربوط بأعمال الإنسان التي كان عملها قبل ذلك .

ولا يعلم قبول الأعمال إلا الله ـ تعالى ـ ، لذلك خطر الصراط عظيم ، فما قاله أبو سعيد إنما هو وصف لخطر الصراط وإلا فهو من حيث الحجم عريض .

وقد جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه تجري بهم أعمالهم أي بحسب أعمالهم يكون أمر مرورهم على الصراط [1] .

---

(١) ينظر : الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم للشيخ عبد الله الهرري ، ص٥٠٠ .



- **الحوض :**

الحوض حق وهو مكان أعد الله فيه شرابا لأهل الجنة يشربون منه قبل دخول الجنة وبعد مجاوزة الصراط ، طوله مسيرة شهر ، وعرضه كذلك ، آنيته كعدد نجوم السماء ، شرابه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب من ريح المسك روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال : قال النبي ﷺ : «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِق ، وَرِيحه أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا»[1] .

فالحوض مكرمة عظيمة خص الله بها سيدنا محمد ﷺ ، وروى مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا ، فَقُلْنَا : مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ» فَقَرَأَ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر:١-٣) ثُمَّ قَالَ : «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ ، فَأَقُولُ : رَبِّ ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ : مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ»[2].

وتبين من ذلك أنَّ ماء الحوض والكوثر شيء واحد ، كما نص على ذلك حديث مسلم ، وأنَّ أصله في الجنة ، فما كان جاريًا منه في داخلها فهو ماء الكوثر ، وما كان خارجًا منه فهو ماء الحوض .

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب الرقاق - باب في الحوض رقم (٦٥٧٩) ، ومسلم - كتاب الفضائل - بَابُ إِثْبَاتِ حَوْضِ نَبِيِّنَا ﷺ وَصِفَاتِهِ رقم (٢٢٩٢) .

(٢) أخرجه مسلم - كتاب الصلاة - بَاب حُجَّةِ مَنْ قَالَ : الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ سِوَى بَرَاءَةٌ رقم (٤٠٠) .

• الجنة دار الثواب :

الجنة حق فيجب الإيمان بها وأنها مخلوقة الآن كما يفهم ذلك من البيان القرآني والحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قال : « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا دَارًا أَوْ قَصْرًا ، فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا : لِعُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ ، فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ : أَيْ رَسُولَ اللهِ أَوَ عَلَيْكَ يُغَارُ؟ »[1] .

وهي فوق السماء السابعة ليست متصلة بها ، وسقفها عرش الرحمن ، وأهلها على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا طوالا في سبعة أذرع عرضًا ، جميلو الصورة ، جرد مرد ، في عمر ثلاثة وثلاثين عاما خالدون فيها ، لا يخرجون منها أبدا ، أخرج البخاري في صحيحه بأن أهل الجنة على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء في سبعة أذرع عرضا» ، وقال رسول الله ﷺ في وصفها : « هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة في مقام أبدي في حبرة ونضرة» رواه ابن حبان[2] .

• جهنم (النار) :

النار حق فيجب الإيمان بها ، وبأنها مخلوقة الآن كما يفهم ذلك من صريح القرآن والأحاديث الصحيحة ، كحديث « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت وألف سنة حتى ابيضت ، وألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة » رواه الترمذي .

---

(١) أخرجه مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ بَابُ مِنْ فَضَائِلِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ ، رقم (٢٣٩٤) .

(٢) ينظر : الشرح القويم ، ص ٥٠٢ .



وهي مكان أعده الله لعذاب المنكرين له الذي لا ينتهي أبدا ، وبعض عصاة المسلمين ، ومكانها تحت الأرض السابعة من غير أن تكون متصلة بها ، بل تحتها منفصلة عنها ، لها أرضها وسقفها المستقلان .

وننبه هنا إلى أن الكفار يخلدون في النار أبدًا لا يخرجون منها كما ثبت ذلك في النصوص الشرعية كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (الأحزاب:٦٤-٦٥)

والمعنى : لا يموتون فيرتاحون من العذاب ، ولا يحيون حياة هنية طيبة بل هم دائما في نكد وعذاب ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾

(طه:٧٤)

ونحب في هذا المقام أن ننبه إلى تلاعب طائفة بالنصوص الواردة واحتيالهم على أن أهل النار يعودون يتلذذون في النار حتى لو أمروا بالخروج لا يرضون ، وهذا رد للنصوص الشرعية .

وطعام أهل النار من ضريع وهو شجر كريه المنظر كريه الرائحة ، قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ (الغاشية:٦-٧).

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ (الدخان:٤٣-٤٦) ، وكذلك يأكل أهل النار من الغسلين ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾

(الحاقة:٣٥-٣٧) .

والغسلين هو ما يسيل من جلود أهل النار ، لأنه كلما أنضجت جلودهم النار يكسون جلودا غيرها .

وأما مشربهم فهو الماء المتناه في الحرارة : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ (النبأ:٢٥) والحميم هو الماء المتناه في الحرارة ، والغساق هو ما يسيل من جلود أهل النار ، ملائكة العذاب تسقيهم من هذا فتقطع أمعاءهم .



ولباسهم من نار ، قال تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ (الحج:١٩).

أما كون جهنم تحت الأرض السابعة ، فقد قال أبو عبد الله الحاكم في المستدرك : إنَّ ذلك جاءت فيه روايات صحيحة(١) .

وهنا حقائق تتعلق بهذا المقام هذا والذي قبله :

الأولى : الجنة والنار شيئان ماديان من متعلقات كل من النفس والجسم معا ، وليسا مجرد وهم يطوف بالنفس أو الروح وحدها ، ومن أجلى الأدلة على ذلك حديث القرآن في بيانه القاطع : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (الغاشية:٨-١٣) . ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ (الغاشية:٢-٧).

الثانية : والتي قد أومأنا إليها من قبل أن كلا من الجنة والنار خالد لا نهاية له ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ (الكهف:١٠٧-١٠٨).

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ (الزخرف:٧٤-٧٧).

---

(١) الشرح القويم ، بتصرف واختصار ، ص ٥١٢ وما بعدها .



وربما استشكل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (هود:١٠٦-١٠٧).

ذلك أن ظاهر قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ استثناء من الخلود وهو ينافي ما تقرره الآيات الأخرى، والجواب: أنه استثناء من قوله «شقوا» في الأولى ومن قوله «سعدوا» في الثانية، أي: إن جميع الأشقياء خالدون في النار إلا من شاء الله منهم ألا يخلدوا فيها وهم العصاة من أهل الإيمان، وجميع أهل السعادة خالدون في الجنة إلا من شاء الله منهم أن يعذب في النار إلى أبد قبل ذلك، وهم الذين غمرت حياتهم بالمعاصي من المؤمنين ولم تكتب لهم الشفاعة أولا، وإنما لم يأت الاستثناء؛ بصيغة «إلا من شاء ربك» كما كان نقيض ظاهر الاستثناء؛ لأن المراد من المستثنى منه العدد المجرد لا الأشخاص بأعيانهم حتى يراعى فيهم العقل، وذلك كقوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (النساء:٣) عبر بما لأن الملاحظ فيهم العدد لا الأشخاص.

الثالثة: من المعلوم أن ابن سينا الفيلسوف يقول بالعذاب والنعيم الروحانيين لا الماديين، ويحكي عنه حجة الإسلام الغزالي أنه ينكر النار الجسمانية والجنة الجسمانية، ويؤول كل الأوصاف المادية التي جاءت في القرآن بأنها أمثال ضربت لتقريب النعيم الروحاني والعذاب الروحاني لعوام الخلق.

ويقول حجة الإسلام الغزالي: «إن هذا الاتجاه مخالف لاعتقاد المسلمين كافة»، وقد فند حجة الإسلام هذا الاتجاه ونقده من جذوره[1].

الرابعة: سبق أن أشرنا إلى أبدية نعيم الجنة وهو دائم باق لا ينقطع ولا يفنى أبدًا، وهذا ثابت بالنصوص القواطع وبالإجماع، أما دوام جهنم وعذابها بدوام

---

(١) في كتاب تهافت الفلاسفة ص ٢٨٣ وما بعدها.

النار وعذابها أو فنائها بمن فيها وصيرورتها عدما في وقت ما ، فالجمهور من العلماء يرى أن النار خالدة ومؤبدة مثلها في ذلك مثل الجنة ، والبعض يرى بأنه لم يرد في القرآن نص قاطع صريح في دوام النار ، وإنما فيه التصريح بخلود الكفار فيها ، وهو يتحقق بأنهم لا يخرجون منها مادامت موجودة ، أما أنها تنقطع أو تدوم فهذا شيء آخر ليس في القرآن ما يقطع به .

وهذا الزعم مدفوع بصريح القرآن والسنة الصحيحة وإجماع الأمة ، ويكفي قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (الإسراء:٩٧) ، وحديث البخاري : « يأهل النار خلود فلا موت » .

وليس للمخالف مستمسك إلا أثرا عن عمر رضي الله عنه : « لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه ، قال ابن حجر في الفتح : هو منقطع . قلت : ولو ثبت حمل على الموحدين .

وأما الإجماع فهو معقود على بقاء النار ، كذا ذكره الحافظ المجتهد تقي الدين السبكي في رسالته (الاعتبار ببقاء الجنة والنار) ، وقال ما نصه : « فإن اعتقاد المسلمين أن الجنة والنار لا تفنيان ، وقد نقل أبو محمد بن حزم الإجماع على ذلك ، وتواردت الأدلة عليه » .

وقال العلامة التفتازاني في شرحه على العقائد النسفية : « وذهب الجهمية إلى أنَّـهما يفنيان ، ويفنى أهلهما ، وهو قولٌ باطلٌ مخالفٌ للكتاب والسنة والإجماع ليس عليه شبهة فضلاً عن حجة »[1] .

● الشفاعة :

وهي سؤال الخير من الغير للغير ، وهي في يوم القيامة السؤال في التخليص من موقف القيامة وأهواله ، وقد تحدث عنها القرآن الكريم في مواضع عدةٍ ، فقال :

---

(١) شرح العقائد النسفية ، ص ١٥٦ .



﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٥٥)، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء:٢٨)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ (الحجرات:٦).

وتدل هذه الآيات على ثبوت الشفاعة، وأنها مشروطة بشرطين:

الأول: إذن الله - تعالى - للشافع في الشفاعة. الثاني: أن يرتضي الله قول المشفوع له وفعله، وبعبارة أخرى: أن يكون المشفوع له مؤمنًا، فلا تقبل الشفاعة في كافر أو في مشرك.

والشفاعة تكون للأنبياء في أقوامهم، وتكون للصالحين الذين يشفعون في العصاة، وقد ثبت في الحديث الصحيح أنَّ الخلائق وهم يمرون على الصراط، يعبر الصالحون، ويسقط بعض العصاة في جهنم، يقول المؤمنون الصالحون: «رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ»[1].

وممَّا يجب اعتقاده في أمر الشفاعة أنَّ النبي ﷺ يشفع في أمته، وأنَّ له شفاعات عديدة منها:

(أ) **الشفاعة الكبرى**: وهي شفاعته في الحشر يوم القيامة، حيث يشتد البلاء على الناس، ويشق عليهم الانتظار، ويذهبون إلى الأنبياء يستشفعون بهم عند الله، ويعتذر كل نبي، ثم يذهبون إلى النبي ﷺ فيشفع لهم، ويقبل الله شفاعته في الخلق، وهذه الشفاعة شفاعةٌ عامةٌ يصرف الله بها الكرب عن أهل الموقف جميعًا، وهي المقام المحمود الخاص به لا ينبغي لأحدٍ غيره.

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب التوحيد - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢-٢٣)، رقم (٧٤٣٩).



(ب) **الشفاعة لأهل الجنة في دخولهم الجنة**، وهاتان الشفاعتان خاصتان به ﷺ .

(ج) **الشفاعة في أهل الكبائر** : وهم الذين استحقوا دخول النار ، فيشفع لهم فلا يدخلونها ، أو يخرجون منها إن كانوا قد دخلوها ، وهذه الشفاعة يشارك فيها النبيَّ ﷺ الأنبياء والشهداء والمؤمنون والصالحون .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، والحمد لله رب العالمين .

* * *



فهرس الموضوعات

عقيدة أهل السنة الجماعة

الإلهيات

(٧٧-١١٢)

النبوات

(١١٣-١٣٥)

السمعيات

(١٣٦-١٨٢)







في هذا الكتاب

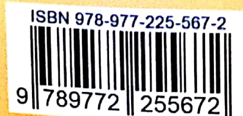
يشرح المؤلف عقيدة أهل السنة والجماعة (الأشاعرة)، مُبيّنًا مؤهلات أجدريتهم بلقب أهل السنة والجماعة، مُوضِّحًا أسباب نسبة العقيدة إلى أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه، ثم يذكر لنا - في إيجازٍ غير مخلٍ - منهج السادة الأشاعرة - أهل السنة والجماعة- وطريقتهم في تقرير مسائل الاعتقاد.

وسيقف القارئ الكريم على جملةٍ من القواعد الاعتقادية مشفوعة بأمثلةٍ تُوضِحها وتشرحها، مع عرض أبرز الشبهات المثارة حول الإمام أبي الحسن الأشعري ومنهجه في العقيدة، والرد عليها بما يدحضها، ويكشف زيفها، ويُظهر بطلانها، وينسف جذورها.

والتزامًا بما اصطُلح عليه في المناهج العلمية والمعاهد الأزهرية يعرض المؤلف تفاصيل عقيدة أهل السنة والجماعة التي جاء بها القرآن الكريم، وأفصحت عنها السنة النبوية الممتعة بالحجية في ثلاثة موضوعات رئيسة :(الإلهيات - النبوات- السمعيات).

ويعني بالإلهيـات ما يتعلق بذات الله تعالى وصفـاته من حيث مايجب في حقه وما يستحيل وما يجوز، وبالنبوات : ما يتعلق بذوات الرسل عليهم الصلاة والسلام وصفاتهم من حيث ما يجب في حقهم ومايستحيل ومايجوز، وبالسمعيات : الأمور الغيبية التي لايمكن الوصول إلى معرفتها والإيمان بها إلا عن طريق السماع من كتاب الله تعالى، أوسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ويأتي هذا الكتاب درسًا وجيزًا وخطابًا واضحًا لعامة الناس المثقفين، شاملًا لكلِّ مسائل العقيدة، يتسم منهجه بالموضوعية المجردة، والتحليل العلمي الذي يتقبله العقل الواعي بكل قبول حسن، وفي ذات الوقت يناقش الكتاب الأفكار المصابة بالهشاشة مناقشة علمية في هدوء وأدب، يبتغي - في كلِّ ذلك - الوصول إلى إعلاء كلمة الحق، وحفظ العلم، وتحصين المسلم من لوثات الأفكار الفاسدة التي تؤثر - سلبًا - على عقيدته الصافية؛ فجزى الله المؤلف خير الجزاء، وأجزل له المثوبة والأجر.


ISBN 978-977-225-567-2

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com